

النظرية
العالمية الإسلامية



لكشف أسرار الكون



د. رشيد الجراح

Certificate of Registration
CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com, Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhe ring to any specific sect. The goal is to officially archive and le gally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

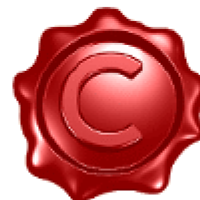
The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

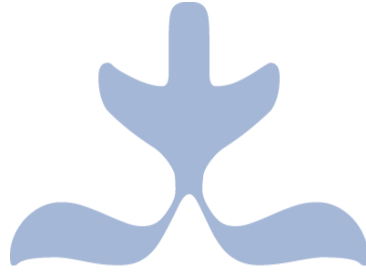
✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

الفهرس



النظرية العالمية الإسلامية لكشف أسرار الكون الفصل الأول



الفصل الأول: النظرية العالمية الإسلامية لكشف أسرار الكون

إلى القارئ

بادئ ذي بدء، لا بد من الإشارة للقارئ الكريم إلى أنّ هذا الكتاب يثير تساؤلات غاية في الخطورة كثيراً ما ترددت في ذهنه، وظنّ أحياناً أنّ من الحرج أو الخطأ إثارتها، واعتقد جازماً أنّ من الصعب أو حتى من المستحيل إيجاد التفسيرات المرضية لها، فآثر ألاّ تشغل تفكيره أكثر مما يجب، فرضي أنْ يصرف ذهنه إلى ما هو دونها، فمثله في ذلك كالذي أضاع متاعاً له في مكان مظلم، فأخذ يبحث عنه في مكان آخر بحجة توافر الإضاءة في هذا المكان، فهل يا ترى سيجد ضالته في يوم ما؟! إنّنا ننوي أنْ نقحم أنفسنا البحث عن ضالتنا في المكان الذي أضعناها فيه حتى وإنْ كان (حسب ظن الكثيرين) شديد الظلمة.

ولعلي أجد من الضروري أنْ أشير أيضاً إلى أنّ إثارة هذه التساؤلات تعني رفع سقف التفكير وسقف التوقعات، فلقد دَرَسنا المنهجية الغربيّة ودرّسناها في مدارسنا وجامعاتنا، وانبهرنا في البداية بما حققته من نجاحات، ولكنّا كلما ازددنا التفكر وإمعان النظر فيها، كلما رسخت لدينا القناعة أنّ منهجيتهم تلك لن توصلنا إلى ضالتنا المنشودة، فهي كما سنعرض لاحقاً تحددنا بسقف أعلى للتفكير لا يمكن تجاوزه – وهو ما لا يرضي العقول الباحثة عن الحقيقة المطلقة.

ولمّا كان هذا الكتاب يثير أسئلة كبيرة جداً، كان لزاماً تقبّل الرأي وإنْ كان مخالفاً لما نشأنا عليه، فنحن جميعاً ندرك صعوبة تصحيح فكرة خاطئة إنْ كانت هي سائدة، فكم هو صعب حتى إلقاء ظلال الشك على ما أصبح من المسلمات! فليس سراً أنْ أبوح أنّه وخلال خبرتي التدريسية كانت ردة الفعل الأولى لإثارة هذه التساؤلات في قاعة الدرس (حتى مع طلبة الدراسات العليا) هي المقاومة والتشكيك حتى لغرض طرحها، فالتفكير جُبِل على مسلمات قديمة صمّت الآذان عن سماع غيرها، وأغشت الأبصار عن النظر من غير زاويتها، فأقفلت القلوب عن فهمها.

ولكنّنا أيضاً وجدنا أنّه بمجرد وضعها على طاولة البحث أخذ المدافعون عن تلك المسلمات يدركون ضعف حجتهم وقلة حيلتهم في الدفاع عنها، وكلما ازداد البحث تعمقا، كلما وجدنا التحول في مواقفهم حتى أصبحوا هم المنتقدين لتلك المسلّمات، الباحثين عن الحقيقة، المدافعين عن المنهجية الجديدة التي نضع الخطوط العريضة لها في هذا الكتاب.

ولمّا كانت التساؤلات التي تثار في هذا الكتاب تمس عقيدة كل شخص، ولمّا كانت النتائج المترتبة على ذلك جمّة، كان لا بد من التبسيط في الطرح والإسهاب أحيانا في الشرح، لتعم الفائدة، فتجنبنا (إلاّ في نادر الأحوال) استخدام المصطلحات العلمية، وآثرنا استخدام المفاهيم الدارجة حتى على لسان العامة، وإنّنا على يقين أنّ القارئ سيجد في أكثر من مكان متعة القراءة إنْ هو منح نفسه فرصة النظر إلى الأمور من زاوية أخرى.

تمهيد

يلحظ القارئ، حتى غير المتدبر، للقرآن كثرة ذكر الآيات الدالة على قدرة الله اللامتناهية في الكون وفي النفس البشرية - يرصد القرآن المفهرس ما يزيد عن (300) موقعاً وردت فيه لفظ الآيات والبيّنات-، قال تعالى:

- ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: 53]
- ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: 93]

وعندما اختار الله سبحانه أنْ يجري بعض تلك الآيات على أيدي بعض عباده، احتار بها العقل البشري بين مكذّب ومصدّق، وتفاوتت ردود أفعال حتى الذين رأوها بأم أعينهم، فنعتوها (ومن جاء بها) تارة بالكذب، ومرات بالشعوذة والدجل، قال تعالى:

- ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس: 15]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ [النمل: 13]
- ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾ [القمر: 1-3]
- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ [سبأ: 43]
- ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام: 4]
- ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [يس: 46]
- ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الصافات: 12-15]
- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: 31]

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥﴾ [يونس: 15]

ولكنّ المثير للانتباه أنّ الذين صدّقوا بها (على قلتهم) ذهبوا إلى أنّ هذه أمور خارقة للعادة، وفوق قدرة العقل البشري على الإحاطة بها، فدرجوا على تسميتها "بالمعجزات"، ومراد القول في ذلك أنّ تلك أمور سخرها الله سبحانه وأجراها على أيدي عباد له، وهي غير قابلة للتطبيق مرة أخرى، وهنا يبرز تساؤل مقلق قلما تصدى له علماء الفكر الديني (إما درءاً للجدل أو لعدم امتلاكهم الإجابة الشافية له)،

تساؤل مفاده: "لِمَ اختص الله سبحانه أقواماً معينين بهذه المعجزات دون أقوام كثيرين؟" وهل من العدل أنْ يرى أهل قرية من الزمن الغابر آيات الله ليطلب منهم بعدئذٍ تصديق رسله بينما يحرم هذا العالم بملياراته فرصة أنْ يروا تلك الآيات بأم أعينهم ليطلب منهم الإيمان وتصديق رسالات الله لهم؟

وتصور معي – عزيزي القارئ- لو أنّ آية من آيات الله (كناقة صالح مثلاً) جاءت قرية في زمننا الحاضر، وتم بثها باستخدام أجهزة الاتصال الحديثة كالتلفاز والإنترنت والأجهزة الخلوية... الخ، إلى العالم كله، ألا تكون الفائدة أكبر والنتائج أفضل والحجة أقوم؟

والاستنتاج الأكثر غرابة –في ظننا- هو ما ذهب إليه علماء الفكر الديني في عقيدة مفادها أنّ تلك الآيات هي معجزات لا يمكن للعقل البشري الإحاطة بها، وذهب أكثرهم إلى عبثية البحث فيها، وهم بذلك يهدمون أكثر مما يبنون، ويسيئون من حيث لا يدرون (كما أكون قد أفعل أنا الآن)، لأنهم يفتحون الباب على مصراعيه لاستنتاج غاية في الخطورة مفاده عبثية تلك الآيات، فما دامت تلك الآيات غير قابلة للتطبيق على أرض الواقع في أماكن وأزمنة متقاربة أو متباعدة، فلِمَ يخبرنا الله بها؟ وما دام أغلبية الذين رأوها بأم أعينهم لم يؤمنوا بها، فكيف يقيم الله بها الحجة حتى على الذين لم يروها؟!

ويكمن الخطر الأكبر – نحن نفتري الظن- في أنّ بعض المتشككين قد يذهبون إلى أبعد من ذلك متسلحين بتلك الآيات نفسها للهجوم على العقيدة الدينية برمتها، لا للدفاع عن مواقفهم الهزيلة، فافترضوا عبثية الله (إنْ صحّ وجوده أصلاً) في الخلق، فهم يفترضون أنّ الإله يتصرف بالكون حسب هواه، وهو إذاً كون غير مسيّر بقانون، وكل ما فيه جزء من تلك العبثية، وقادهم هذا الافتراض إلى الحديث عن عبثية الكون، وعبثية الخلق، وعبثية الوجود، وعبثية المنتهى، الخ .

وخلاصة القول أنّ الآيات التي أنزلها الله سبحانه لتقيم الحجة على الناس وتكون مكمن قوة في العقيدة، انقلبت بمرور الزمن لتصبح مجال اتهام للعقيدة برمتها، وأصبح الإنسان المؤمن مديناً بتفسير تلك الآيات للعقل غير المصدق بها.

ولم يتوقفوا عند آيات القرآن الكريم، فلقد اقتبسوا بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ليتحدوا المؤمنين بها مطالبين بالبرهان العملي، ومرادهم في ذلك لا لبس فيه، وملخصه أنّ هذه العقيدة تحوي في ثناياها أموراً يصعب تصديقها،

ولنورد بعض تلك الأحاديث:

- حديث مقاتلة بني إسرآئيل :حدثنا الحكم بن نافع أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم ثم يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله"
- حديث مخاطبة الرجل شراك نعله: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس وحتى يكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله فتخبره بما أحدث بعده"
- حديث مخاطبة الراعي الذئب (صحيح البخاري المجلد الخامس حديث رقم 15، وكذلك حديث مسند أحمد المجلد الثالث صفحة 83، وصحيح ابن حبان في كتاب المعجزات حديث رقم 6514) أخبرنا أبو يعلى ، حدثنا هدبة بن خالد القيسي ، حدثنا القاسم بن الفضل الحداني ، حدثنا الحريري ، حدثنا أبو نضرة ، عن أبي سعيد الخدري ، قال (بينا راع يرعى بالحرة إذ عرض ذئب لشاة من شائه ، فجاء الراعي يسعى ، فانتزعها منه ، فقال للراعي : ألا تتقي الله، تحول بيني وبين رزق ساقه لله إلي ؟ قال الراعي : العجب للذئب . والذئب مقع على ذنبه . يكلمني بكلام الإنس ؟ قال الذئب للراعي : ألا أحدثك بأعجب من هذا ؟ هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحرتين يحدث الناس بأنباء ما قد سبق ، فساق الراعي شاءه إلى المدينة ، فزواها في زاوية من زواياها ، ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له ما قال الذئب ، فخرج رسول الله ، وقال للراعي : (قم فأخبر) ، فأخبر الناس بما قال الذئب ، وقال صلى الله عليه وسلم : (صدق الراعي ، ألا من أشراط الساعة كلام السباع الإنس والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الأنس ، ويكلم الرجل نعله وعذبة سوطه ، ويخبره فخذه بحديث أهله بعده) .
- حديث الدجال (من سنن الترمذي): حدثنا علي بن حجر أخبرنا الوليد بن مسلم وعبد الله بن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر دخل حديث أحدهما في حديث الآخر عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن يحيى بن جابر الطائي عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه جبير بن نفير عن النواس بن سمعان الكلابي قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل قال فانصرفنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجعنا إليه فعرف ذلك فينا فقال ما شأنكم قال قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل قال غير الدجال أخوف لي عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست

فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم إنه شاب قطط عينه طافئة شبيه بعبد العزى بن قطن فمن رآه منكم فليقرأ فواتح سورة أصحاب الكهف قال يخرج ما بين الشام والعراق فعاث يمينا وشمالا يا عباد الله اثبتوا قال قلنا يا رسول الله وما لبثه في الأرض قال أربعين يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قال قلنا يا رسول الله أرأيت اليوم الذي كالسنة أتكفينا فيه صلاة يوم قال لا ولكن اقدروا له قال قلنا يا رسول الله فما سرعته في الأرض قال كالغيث استدبرته الريح فيأتي القوم فيدعوهم فيكذبونه ويردون عليه قوله فينصرف عنهم فتتبعه أموالهم ويصبحون ليس بأيديهم شيء ثم يأتي القوم فيدعوهم فيستجيبون له ويصدقونه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت فتروح عليهم سارحتهم كأطول ما كانت ذرا وأمده خواصر وأدره ضروعا قال ثم يأتي الخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فينصرف منها فيتبعه كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا شابا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك إذ هبط عيسى ابن مريم عليه السلام بشرقي دمشق عند المنارة البيضاء بين مهرودتين واضعا يديه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ قال ولا يجد ريح نفسه يعني أحدا إلا مات وريح نفسه منتهى بصره قال فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله قال فيلبث كذلك ما شاء الله قال ثم يوحي الله إليه أن حوز عبادي إلى الطور فإني قد أنزلت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم قال ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله.

وقد كانت وسيلة الدفاع عند بعض أبناء المسلمين أنْ وصلت عند بعضهم الجرأة إلى إنكار أو التشكيك بصحة تلك الأحاديث (كما أفعل أنا أحياناً)، وذهب أكثرهم "إيماناً" إلى أخذ تلك الأمور إيماناً غيبياً، واستندوا في دفاعهم عن عقيدتهم أنّ مثل تلك الأمور موجودة في جميع الشرائع السماوية الأخرى، فاقتبسوا قصصا مشابهة من التوراة والإنجيل .

والسؤال الذي نوجهه لأبناء المسلمين قبل غيرهم هو: هل إذا شككنا بمثل هذه الأحاديث أو تجنبنا الخوض فيها، فهل نستطيع التشكيك أو تجنب الخوض بمثل تلك الآيات التي وردت في القرآن الكريم؟ فهل إذا شككنا مثلاً بحديث الدجال نستطيع التشكيك بالآيات القرآنية التي تحدثت عن عيسى بن مريم عليه السلام؟

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: 49]

وهل إنْ شككنا بحديث مقاتلة بني إسرائيل نستطيع التشكيك بمقاتلة موسى عليه السلام لفرعون وجنوده وشق موسى البحر بعصاه، أو بقصته مع السحرة؟

- ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشعراء: 63]

وهل إنْ شككنا بحديث الراعي للذئب، أو مخاطبة الرجل شراك نعله، هل نستطيع التشكيك بمخاطبة سليمان عليه السلام للنمل أو الهدهد؟

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾ [النمل: 18-22]

نحن نفتري الظن بأنّ مشكلة ما جرى حتى الساعة من نقاش في هذا الموضوع تكمن في أنّه لا يجيب على التساؤل الحقيقي وهو الذي نطرحه هنا : هل فعلاً أنّ تلك الآيات "معجزات" حدثت أو ستحدث لمرة واحدة، وهي غير مسيرة بقانون لتكون قابلة للتطبيق مرات ومرات؟ وإنْ كان كذلك، فما الحكمة في أنْ يخبرنا الله بها ويقيم بها الحجة على الناس في كل زمان ومكان حتى على الذين لم يروها بأم أعينهم؟ فهل من العدل أنْ تكون الحجة علينا في صدق رسالة إبراهيم عليه السلام مثل الحجة على أولئك الذين رأوه يخرج من نار قومه العظيمة وكأنه في نزهه؟ وهل من العدل أنْ تكون الحجة علينا في صدق رسالة موسى عليه السلام مثل الحجة على أولئك الذين رأوه يشق البحر بعصاه بأم أعينهم؟ وهل من العدل أنْ تكون الحجة علينا في صدق رسالة عيسى بن مريم عليه السلام مثل الحجة على أولئك الذين رأوه يحيي الموتى ويشفي الأبرص والأكمه بأم أعينهم؟ وهل من العدل أنْ تكون الحجة علينا في صدق رسالة محمد عليه الصلاة السلام مثل الحجة على أولئك الذين رأوا القمر ينشق نصفين بأم أعينهم؟

نحن نعتقد جازمين أن أصحاب الفكر الديني قد أوقعوا أنفسهم في مصيدة أصحاب الفكر التشكيكي والإلحادي، نتيجة فهمهم الخاطئ لآيات الله سبحانه في الكون وفي النفس البشرية، فهم قد أصبحوا مدينين للطرف الآخر بالتدليل بالبرهان العملي على صدق تلك الآيات التي غدت مجال اتهام للتفكير الديني يوجهه أصحاب العقول التي لا ترضى بأقل من الطريقة العلمية في التفكير واستخلاص النتائج .

فهم يرون أنّ الفكر الديني يضم في ثناياه أموراً غير قابلة للتطبيق أو التجريب، ومن هنا جاءت مسيرتهم في البحث عن الحقيقة بعيداً عن الدين، معتقدين أنّ في الدين من الغيبيات التي لا تساعدنا في حياتنا اليومية، وذهب الكثير منهم إلى نعت تلك الغيبيات بالخرافات، وما كان رد أصحاب الفكر الديني سوى الثبات على موقفهم العقائدي القائل بأنّ تلك الغيبيات هي معجزات تؤخذ بالتسليم وليس بالتفكير، واستمر الجدل مئات (لا بل آلاف) السنوات بين هذين الاتجاهين المتعاكسين، وكان الضحية الإنسان العادي الذي أُشكل الأمر عليه وأصبح من الصعب عليه أنْ يحسم أمره إلى أي الفريقين ينتمي، ففي حين تجذبه فطرته وشعوره الداخلي إلى موقف علماء الدين، كان عقله ومنطقه يجره على الدوام إلى جانب الإلحاديين والتشكيكين، فتولّد ذلك الانفصام في الشخصية والسلوك بين ما يميل إليه الطبع والفطرة السليمة وما يرجحه العقل والمنطق، فغلبت الفطرة عند البسطاء، وغلب المنطق عند من تسموا بالمتعلمين، وقلّما ظهر بين المتعلمين من يميل إلى فطرته وينكر ما ذهب إليه منطقه.

والسؤال الذي نطرحه هنا هو : ألا يمكن أنْ يتلازم التفكير الفطري مع التفكير العلمي؟ هل يمكن أنْ نصل إلى المرحلة التي لا يتنافى فيها التفكير العلمي الصحيح مع الفطرة السليمة ليصبح علمنا مبنياً على إيمان يقيني، ويصبح إيماننا مبنياً على تفكير علمي؟

إنّ الجواب الذي نقدمه هنا هو نعم بكل تأكيد، شريطة ردم الهوة بين الطرفين، أي إنْ استطعنا أنْ نثبت أنّ ما يسميه علماء الدين "بالمعجزات" وعلماء الإلحاد "بالخرافات" هي في الحقيقة لا هذا ولا ذاك، بل هي أمور علمية مبنية على أصول ومبادئ قابلة للتجريب والتطبيق، ولكنّ ذلك لن يتم إلا بتبني إطار نظري يمكن من خلاله تفسير تلك الأمور ومن ثم العمل على إمكانية تطبيقها على أرض الواقع،

إنّ ما نحاول تقديمه هنا هو نظرية فكرية علمية عالمية مبنية على التصور القرآني لتكون منافسة وبالبرهان النظري والدليل العملي لجميع نظريات الفكر المادي. ونحن نعتقد جازمين أنّ تبني هذا الفكر الجديد إيمانياً في المقام الأول، ومن ثم العمل على تطبيقه على أرض الواقع ستمكننا من تحقيق أضعاف أضعاف ما حققه الفكر المادي، وسنتمكن من تغيير التفكير على وجه الأرض، لا بل ستمكننا من أنْ ننفذ من أقطار السموات والأرض. ولكن قبل الولوج في ثنايا تلك النظرية هناك عدة تساؤلات لا بد من التعرض لها.

أولاً، ألا يتساءل البعض أنّ تكشف تلك المعرفة (أي أنّ ما يسمى بالمعجزات هي في الحقيقة أمور قابلة للتجريب والتطبيق) يمكن استخدامها إما لهداية الناس جميعا لمعرفتهم حينئذٍ بصدق الرسالة الدينية أو لضلالهم جميعا لأنهم يصبحوا حينئذ في غنى عن العبادة؟

إنّ الجواب هو النفي في الحالتين، فتكشف تلك المعرفة لن يكون سبباً في هداية الناس جميعاً، ولن تكون كذلك سبباً في ضلالهم جميعاً، والدليل على ما نذهب إليه آيات عديدة في كتاب الله تؤكد جميعها أنّه لو جاءت كل آية وحتى لو جاء الله نفسه والملائكة معه ما اهتدى من لم تنفذ مشيئة الله له بالهداية، قال تعالى:

- ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: 109-111]

أما الدليل الآخر الذي نقدمه على ذلك فيكمن في أن القرآن الكريم يخبرنا بما لا يدع مجالاً للشك أنّ جميع رسل الله تعالى جاءوا أقوامهم بآيات وبينّات، ولكن هل شكلت تلك الآيات سبباً لهداية الناس جميعاً حينئذ؟ فكيف رد أولئك الناس على رسالة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام؟ ألم يكذبوا رسل الله جميعاً وينعتوا الآيات التي جاءوا بها بالسحر والشعوذة؟ ألم يروا إبراهيم عليه السلام يخرج من نارهم "العظيمة" ويكأنه في نزهة؟ ألم يذكروا أنّ عصا موسى وإخراج يده من جيبه بيضاء من غير سوء ليست أكثر من السحر الأكبر لإخراجهم من ديارهم؟ ألم يروه يشق البحر بعصاه نصفين؟ ألم يروا بأم أعينهم عيسى عليه السلام يكلمهم في المهد؟ ألم يروه يحيي الموتى ويشفي الأكمه والأبرص؟ وألم يروا القمر ينشق نصفين لمحمد عليه الصلاة والسلام؟ فهل زاد أولئك عن القول أنّ ذلك ليس إلا السحر الأكبر؟ وهل شكلت تلك الآيات سبباً في هدايتهم جميعاً؟!

ثانياً، قد يرد الطرف ألآخر بالقول أنّ تكشف تلك الحقائق والوصول إلى تلك المعرفة قد تكون سبباً لضلال الناس جميعاً حيث يصبح الناس حينئذٍ في غنىً عن العبادة، لأن الحياة الدنيا تصبح أقرب إلى حياة الرغد حيث يستطيع الإنسان الحصول على ما يريد، فتكون الحياة حينئذٍ أقرب إلى الجنة أو ربما أقرب إلى الفوضى؟ نحن نظن أنّ الجواب على هذا السؤال هو أيضاً النفي، مع تأكيدنا أنّ الغالبية العظمى (ولكن ليس كل الناس) سيكونون أقرب إلى جانب الضلال منهم إلى جانب الهداية، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: 103]
- ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: 243]
- ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: 187]
- ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود: 17]
- ﴿... وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: 13]

ولن يكون تكشف ذلك العلم سبباً لضلال الناس جميعاً وذلك لسبب بسيط : أنّ الإنسان سيبقى دائماً بحاجة إلى خالقه لعجزه عن الوصول إلى المعرفة المطلقة، وستبقى فئة (ولو قليلة) دائمة التفكر في صاحب

القوة المطلقة المسيّرة للكون، وبكلمات أخرى إنّ علم الله سبحانه هو أكبر من الدنيا وما فيها، فعلم الله أكبر من أنْ يحيط به بنو البشر، فالله عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، قال تعالى:

- ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ...﴾ [الأنعام: 59]

وكذلك ما كان الله ليطلعنا على الغيب، قال تعالى:

- ﴿... وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ ...﴾ [آل عمران: 179]
- ﴿... وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ ...﴾ [الأعراف: 188]

فهذا العلم هو علم الله وحده، وهو ما لا نكلف أنفسنا عناء البحث عنه وذلك لأنّ أمره محسوم بالنسبة لنا، أما العلم الذي نبحث عنه فهو العلم الذي اطلع الله بعض عباده عليه، وهو ما يخص الإنسان على هذه الأرض، وهي الآيات والبينات التي جاء بها نوح وموسى وعيسى وداود وسليمان ويوسف وحتى لقمان والخضر، قال تعالى:

- ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 187]
- ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 219]
- ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: 242]
- ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103]
- ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: 89]
- ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل: 93]

فنحن إذاً مؤهلون للحصول على جزء من علم الله وليس علم الله كله، قال تعالى:

- ﴿... وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: 85]
- ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ...﴾ [النمل: 40]

ونحن كذلك ندرك أنّ تكشف تلك الحقائق لن يأتي دفعة واحدة مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾ [ص: 88]

وهذا بالضرورة يعني أنّه لن ينكشف من تلك الحقائق إلا ما شاء الله له أنْ يبين، قال تعالى:

- ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ... ٢٥٥﴾ [البقرة: 255]

دعاء: أسأل الله أن ينفذ قوله بمشيئته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لأحد غيري، إنه هو السميع العليم

فكما تذكر الآيات السابقة فإن ما سينكشف من العلم إذاً هو شيء من علم الله وليس علم الله كله، فنحن نطلق العنان لخيالنا ولقدرتنا التي وهبنا الله إياها، فما دام الله سبحانه قد منحنا القدرة على التفكر بها حتى بيننا وبين أنفسنا، فلِمَ نحرم أنفسنا فرصة التفكر بها بصوت مرتفع أو بصوت جماعي؟ ولِمَ لا نضعها على أجندة أبحاثنا العلمية مادامت الغاية كريمة والطريقة مشروعة؟

الافتراض النظري الذي نطرحه:

يجب أنْ نتوقف عن النظر إلى تلك الآيات والبينات على أنها معجزات تحددت بمكان وزمان وارتبطت بأشخاص معينين، فنحرم أنفسنا وأجيالنا (لا بل) والعالم أجمع فرصة التفكر بها والاستفادة منها، إنّنا مدعوون نحن كمسلمين في المقام الأول والعالم من بعدنا للنظر إلى تلك الآيات والبينات على أنها أمور قد تكون قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان وعلى أيدي أشخاص كثيرين، وبكلمات أدق نحن نفتري الظن بأنّ تلك الآيات والبينات يجب أنْ تشكل الحد الأقصى لخيال المسلم العلمي، وكيف لا وكتاب الله ما زاد على نعتها على أنّها علم، فهي في كتاب الله ليست خرافات كما يصفها الإلحاديون، وهي ليست معجزات كما يظنها علماء الدين، قال تعالى:

- ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨﴾ [آل عمران: 48]
- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ [يوسف: 68]
- ﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: 101]
- ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾ [الكهف: 65]

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾ [النمل: 15]
- ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ [النمل: 16]
- ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤﴾ [النساء: 54]

وهنا ربما يسرع البعض لطرح التساؤل التالي: وهل يمكن أنْ يتوافر هذا العلم للناس العاديين؟ أي لنفترض أنّ ذلك حقاً هو علم (وليس خرافات ولا معجزات)، فهل سيؤتيننا الله ذلك العلم كما آتاه الله لعيسى وموسى وداود وسليمان مثلاً؟ إنّ الجواب المفاجئ الذي نقدمه هو نعم، والدليل الأكبر الذي نقدمه على أنّ هذا العلم قد يتوافر لنا نحن المسلمين هو أنه كما اختص الله هؤلاء الناس بهذا العلم اختصنا كذلك نحن المسلمين به، وهذا الأمر مثبت بما لا يترك مجالاً للريبة في كتاب الله، فالله سبحانه قد اختص رسله بالآيات والبينات وتفضل على بعضهم بالعلم المقترن بها والحكمة المصاحبة لها:

- ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١﴾ [الأعراف: 101]
- ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾ [التوبة: 70]
- ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣﴾ [يونس: 13]
- ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩﴾ [إبراهيم: 9]
- ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الروم: 9]
- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥﴾ [فاطر: 25]

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢٢﴾ [غافر: 22]
- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٨٣﴾ [غافر: 83]
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ [التغابن: 6]
- ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۝٣٩﴾ [العنكبوت: 39]

وقد جاء في معرض الحديث عن ابن مريم عليه السلام:

- ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣﴾ [الزخرف: 63]

وجميع الآيات في هذا السياق جاءت في مجملها لتؤكد أنّ الله قد تفضل على رسله وأقوامهم السابقين بالبينات (وليست المعجزات)، ولنربط ذلك بما تفضل الله به على هذه الأمة: فلقد جاءت دعوة إبراهيم عليه السلام لهذه الأمة على النحو التالي:

- ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٢٩﴾ [البقرة: 129]

فما كان الله ليرد دعوة إبراهيم عليه السلام لهذه الأمة، فقال تعالى:

- ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [آل عمران: 164]
- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: 2]

وقال الله سبحانه مخاطباً هذه الأمة:

- ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة: 151]

إنّ الاستنتاج الكبير الذي نجهد أنفسنا للوصول إليه هو على النحو التالي: لقد أيّد الله رسله وبعض عباده السابقين بالعلم والحكمة، وقدموا الدليل العملي لأقوامهم على ذاك التأييد الإلهي على شكل الآيات والبينات، ولكن أقوامهم لم يتعلموا تلك الحكمة وذلك العلم عندما آثروا أن يربطوها بالشخص نفسه، فارتبط العلم بالشخص وانتهى بموت أو بنهاية ذلك الشخص، فانتهى علم موسى بموته، وكذلك انتهى علم يوسف وداود وسليمان، وارتفع علم عيسى إلى السماء عندما رفعه الله إليه، فكانت الحاجة متجددة إلى أنْ ينزّل الله بعض آياته إلى الأرض حتى جاءت الرسالة الخاتمة، فأنزل الله آياته وأنزل تلك الحكمة وذلك العلم على رسوله:

- ﴿... وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٣١﴾ [البقرة: 231]
- ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء: 113]
- ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ [الإسراء: 39]

ولم يختزل تلك الحكمة لشخص النبي بل تفضل بها على أمته:

- ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة: 151]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [الجمعة: 2]

ولكن لم تنته الحكمة والعلم بموته عليه الصلاة والسلام، بل علّمها لقومه وتركها فيهم ليكونوا هم رسلا للعالمين من بعده:

- ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]

فأصبحت الحكمة متاحة للأمة بأكملها:

- ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: 269]

وهنا لا بد من التعرض لملحوظ غاية في الروعة لهذا التصوير القرآني، فلعل البعض قد يلاحظ أنّ هناك شيئاً من التفاوت بين دعوة إبراهيم عليه السلام لهذه الأمة واستجابة ربه لدعوته، والتي قد يظنها البعض نوعاً من عدم الدقة: دعاء إبراهيم

- ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: 129]

إجابة الله :

- ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: 151]
- ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: 164]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: 2]

فلعل القارئ الكريم قد لاحظ التفاوت في ترتيب الأولويات، فإبراهيم يطلب من ربه أنْ تكون مهمة الرسول لهذه الأمة على الترتيب التالي: يتلو عليهم الآيات، يعلمهم الكتاب والحكمة، يزكيهم فكان الرد الإلهي على الترتيب التالي: يتلو عليهم الآيات، يزكيهم، يعلمهم الكتاب والحكمة. والسؤال الذي قد يتبادر للذهن هو: لِمَ اختلف الترتيب بين دعوة إبراهيم واستجابة الله لهذه الدعوة؟ وهل هي من باب المصادفة والتبديل غير المقصود؟ نقول كلا وألف كلا، إنّها دقة وروعة في التصوير القرآني الذي يحمل المعاني الجمة التي لها علاقة مباشرة بفحوى الموضوع الذي نتصدى له هنا، فأولاً وقبل كل شيء لم يتغير الترتيب في الآيات التي تصور الرد الإلهي لدعوة إبراهيم، فجميعها جاءت بالترتيب ذاته، بينما جاءت دعوة إبراهيم بترتيب مغاير نقرأه نحن على النحو التالي: لقد كان الهدف الأقصى في ذهن إبراهيم عليه السلام لهذه الأمة هي "الزكوة" أي الطهارة وكان ظن إبراهيم أنّ تلك الزكوة تكون عن طريق (1) تلاوة الآيات ومن ثم (2) تعلم الكتاب والحكمة، وهذا يعني

بمنظور إبراهيم عليه السلام أنّ من يتلوا الآيات أولاً يحصل على علم الكتاب ثانياً، الذي إنْ حصل جاءت الزكوة (أي الطهارة) المنشودة لهذه الأمة كما في الشكل التالي:



تلاوة الآيات، علم الكتاب الحكمة، الزكوة، ولننظر الآن إلى الرد الإلهي، فلقد جاء الرد من الله بالمنّة على هذه الأمة "لقد منّ الله على المؤمنين"، فالسؤال هو كيف كانت المنّة من الله على هذه الأمة؟ نقول أنّه بالإضافة إلى ما ذكره الأقدمون بأنّ المنّة كانت ببعث الرسول إليهم (أي إجابة الدعاء أولاً وقبل كل شيء)، كانت المنّة أيضاً ظاهرة بهذا الترتيب في الأولويات، فالله سبحانه قدّم "الزكوة" (يزكيهم) على علم الكتاب والحكمة كما في الشكل التالي:



تلاوة الآيات، الزكوة ، علم الكتاب والحكمة، وهذا بقراءتنا يعني أنّ ما هو مطلوب من هذه الأمة هو فقط، تلاوة الآيات لتتحقق الزكوة (الطهارة)، وهذه منّة عظيمة من الله على هذه الأمة، وتصور معي لو أنّ الطهارة (أي الزكوة) المنشودة لا تتحقق لهذه الأمة إلا بترتيب إبراهيم عليه السلام (تلاوة الآيات، فعلم الكتاب والحكمة، فالزكوة) لشق ذلك على الأمة، أي لأصبح العلم بالكتاب والحكمة شرطاً إضافيا لتلاوة الآيات لتتحقق الطهارة، لكننا نظن أن التخفيف جاء من الله (أي المنّة) على نحو أنّ تأتي الزكوة مباشرة بعد تلاوة الآيات ويأتي علم الكتاب والحكمة لمن أراد الاستزادة. فآيات الله موجودة للجميع، وعلمها ممكن لمن أراد الزيادة في الفضل.

أما الاستنتاج الأكبر لتوافر هذا العلم والحكمة لهذه الأمة يأتي على النحو التالي: فما دامت آيات الله موجودة بين أيدينا وعلمها ممكن (أنظر الآية 2 سورة الجمعة)، لم يعد العالم بحاجة لرسل من الله كما كانت الحاجة في العصور التي سبقت الرسالة المحمدية، فخلاصة القول أنّ محمداً (صلى الله عليه وسلم) قد جاء بتلك الآيات من ربه كما جاء الرسل والأنبياء السابقون، ولكنّه تميّز عنهم أنّه ترك علم تلك الآيات والحكمة منها في أمته، فهم (أي أتباع الرسالة المحمدية) إذاً إنْ حملوا تلك الرسالة وتعلموا ذاك العلم وتلك الحكمة أصبحوا رسلاً للعالمين تجري على أيديهم تلك الآيات والبينات كما جرت على أيدي الرسل الذين حملوا الرسالة إلى أقوامهم قبل هذه الرسالة الخاتمة، وبكلمات أخرى، نحن نفتري الظن أنه إنْ نحن توافر لنا علم الآيات والحكمة منها وذاك بنص الآيات السابقة، ألا نكون إذاً نحمل ما حمله الرسل في أقوامهم السابقين؟ نعم هذا ما نفهمه من الافتراض أنّنا نحن (أمة محمد) رسل للعالمين، فكيف يكون الواحد منّا رسولاً إنْ لم تتوافر له الآيات والبينات التي جاء بها الرسل السابقون أقوامهم؟!

- ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: 70]

وهذا يدعونا أيضاً للتساؤل عن سبب أنْ نكون نحن أمة محمد (عليه الصلاة والسلام) من دون الأمم جميعاً رسل للناس. أي لِمَ لَمْ تُكَلَّف الأمم الأخرى كما كلفت هذه الأمة بحمل الرسالة الدينية للناس؟ لقد درج البعض على اعتبار أنّ هذه الأمة قد تشرفت بهذه المهمة تميزاً وتكريماً لها مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: 110]

وكان رد الأطراف الأخرى أنهم هم الأمم المصطفاة، وتباينت الآراء حتى غدا كل طرف معتد بنفسه مفاخراً بتمييز الله له، فنقول أنّ ذلك فيه من الشوفانية التي قد تغطى الحقيقة عن التجلي، ففي عقيدتنا نجد أنّ الله قد ميّز أمماً أخرى:

- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: 40]
- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: 47]
- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [البقرة: 122]
- ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: 54]
- ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: 55]

فأين تكمن الحقيقة إذاً؟ من هي الأمة المميزة؟ والأهم من ذلك كله من هي الأمة المكلفة بحمل الرسالة السماوية إلى العالمين؟ وهل حقاً كانت الأمم السابقة غير مكلفة بالدعوة إلى الله؟ وما القول إذاً في ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة ينصح قومه بإتباع دعوة الرسل؟

- ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس: 20]

وما القول كذلك في ذلك الرجل الذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون؟

- ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: 28-33]

والسؤال يكون إذاً : وأي دعوة إلى الله أعظم من دعوة هذا الرجل خصوصاً أنها كانت بوجه من كان يدّعي لنفسه الألوهية؟

فهل حقاً تميزت هذه الأمة عن غيرها بحمل الرسالة إلى الناس؟ وإنْ كان كذلك فكيف يمكن فهم الأمر بوجود مثل هذه الحقائق في قرآننا؟ إنْ القول بهذه البساطة أنّ الله قد ميزنا عن غيرنا وأنّ الله كلفنا شرف حمل الرسالة للناس كافة ولم يكن ذلك لغيرنا يعني أنّ الله سبحانه منع هذا الأمر عن الأمم السابقة، إنّنا ندعي بأنّ في هذا الفهم تجني على الله، وكأننا إذاً ندعي أنّ الإله قد غيَّر بمجيء هذه الأمة إستراتيجيته في حمل رسالته إلى العالمين، وهو ما لا يجب أنْ يكون وذلك لأنّ الله قد قضى:

- ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: 62]
- ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: 23]

إنّنا نفهم أنّ هذه الأمة غدت حاملة لرسالة الله للعالمين من منظور آخر لا يحمل الشوفانية التي قد ننتقد من خلالها ولا يكون في الأمر تجنّ على سنن الله الكونية. إنّنا ندعي أنّ كل الأمم السابقة المؤمنة قد ميزها الله كما ميّز هذه الأمة، وكان عليها حمل رسالته إلى العالمين وقد فعلوا ذلك وأنبياءهم بين ظهرانيهم

- ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس: 20]
- ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ....﴿٢٨﴾﴾ [غافر: 28]

ولكنّ انفردت هذه الأمة من دون الأمم الأخرى بهذا الشرف للسبب البسيط التالي: لقد ضاعت الآيات والبينات التي كان يحملها الرسل كدليل على صدق رسالتهم للناس مع نهاية حياة ذلك الرسول، فذهبت ناقة صالح مع نبي ثمود:

- ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: 73]

وذهبت بيّنات يوسف بهلاكه:

- ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: 34]

وجحد قوم عاد بالآيات التي جاءهم بها نبيهم هود:

- ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: 59-60]

وكذلك حصل للأقوام السابقة الأخرى، فجاء على لسان شعيب في نصحه لقومه:

- ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: 89]

وكذلك حُرِّفَت نصوص الكتب بعد موت الرسل الذي يُسِّرت تلك الكتب بألسنتهم، فَحُرِّفت عبرانية كتب وفرقان موسى، وضاعت آرامية إنجيل عيسى:

- ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: 75]

ونحن نتحدى إنْ يقدموها لنا كاملة غير منقوصة ولم يعد القوم يملكوا الآيات التي جاء بها رسلهم، فكيف إذاً سيحملون رسالتهم إلى العالمين؟ أليس من أراد أنْ يدّعي الرسالة بحاجة إلى الآيات والبينات التي تكون دليلاً على صدق الرسالة التي يدعو لها؟أما هذه الأمة، فهي لا زالت تحظى بشرف الرسالة لأنّها لازالت تملك الآيات التي جاء بها نبيهم ألا وهو القرآن الكريم، وحتى يستبين القارئ وجاهة ما ندَّعي، ندعوه لتخيل السيناريو التالي: تصور معي لو أنّ القرآن الكريم (لا قدر الله) قد ضاع النص نصه الأصلي الذي جاء به محمد، فهل سنكون حينئذ مؤهلين لحمل تلك الرسالة الضائعة إلى الأمم الأخرى؟ وهل سنكون نملك ما يمكن أنْ

نقدمه للعالمين حتى وإنْ كنا مؤمنين بها؟! نعم إنّ الأمم الأخرى تؤمن برسالة الأنبياء السابقين ولكنها لا تحمل الآيات والبينات التي جاء بها أولئك الأنبياء والرسل، فلذا تعجز أنْ تكون مبلغة للرسالة الحق.

فخلاصة القول تساؤل بسيط هو: ما هي سلعة الرسل غير الآيات والبينات الدّالة على صدق رسالتهم؟ وإنْ صح هذا التساؤل فكيف بنا نكون رسلاً إنْ لم نملك سلعتهم؟ ومن هنا جاءت دعوة الله لهذه الأمة للتفكر بهذه الآيات في كل وقت وحين:

- ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: 29]
- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء: 82]
- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد: 24]

وهذا التدبر كفيل بأنْ يهدي الإنسان إلى خالقه فيعبده عن علم ويقين لا يساورهما شك ولا مساءلة، وينتج عن ذلك بالضرورة فهم آيات الله والعلم الذي انطوت عليه، ويكون ذلك الفهم هو الوسيلة الأقوم للرد على دعوى الإلحاديين والتشكيكين، فنحن نعلم أنّ هؤلاء قد استخدموا آيات الله للتشكيك بالفكر الديني، وهم يعلمون يقيناً صدق الرسالة الدينية، ونحن ندرك كذلك أنّ دعواهم تلك ليست أكثر من الحجة التي يبررون بها فجورهم ومعصيتهم، فهم قد أسروا الكفر وأظهروا التحدي والمفاجرة، والله أعلم بهم حيث يقول:

- ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩﴾ [الأنعام: 109]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾ [البقرة: 118]
- ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢﴾ [فاطر: 42]

فتلك الآيات التي، حسب ظنهم، تبرر فجورهم ليست السبب الحقيقي لدعواهم، فالله سبحانه وهو الأعلم بحالهم يعطينا السبب الحقيقي لضلالهم:

- ﴿۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١١﴾ [الأنعام: 111]

وهذا دليل واضح على أنّ حجتهم داحضة، وما تخفي نفوسهم أكبر، فالله سبحانه العالم بنفوس عباده يؤكد أنّ قلوبهم قد أُقفلت وأذانهم قد صمت وأبصارهم قد أغشيت، فتعطلت بذلك لديهم الحواس التي، إنْ عملت، كانت ستهديهم إلى الطريق المستقيم، قال تعالى:

- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: 25]
- ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: 146]

فآيات الله بالنسبة لهم أساطير الأولين، فهم عندما وثقوا بأذانهم التي صمت وأعينهم التي أغشيت وقلوبهم التي أقفلت، لم تكن النتيجة التي توصلوا إليها إلا الضلال والخسران، وهو ما سيعترفون به يوم القيامة أمام الأشهاد:

- ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: 10]

فاعترافهم سيكون ليس بخطأ استنتاجهم، ولكن بسبب ضلالهم، فآيات الله أكبر من أنْ ينكروها في أنفسهم، فقد ينكرونها على الملأ ويتخذونها حجة للمجادلة، ولكن لا يستطيعون إنكارها في أنفسهم:

- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: 13-14]

فحتى أشد الناس إنكاراً لآيات الله وأكثرهم ثقة بالتفكير المادي المجرد تستطيع الإيقاع به في شرك تفكيره بكل يسر وسهوله، حاول أنْ تتخيل معي ردة فعل ذاك المكابر المفاجر لو أنّك أخذته على حين غفلة منه بالدعاء عليه بقطيعة الرزق والأهل والولد وأغلظت له في ذلك، ألا يثير ذلك حفيظته، وقد تثور ثائرته ويرد عليك بأغلظ من ذلك؟ فالسؤال البسيط هو لم يثير مثل ذلك الدعاء حفيظته ما دام هو أصلاً لا يؤمن بفاعليته؟ ألا يفضح ذلك ما يُخفي في نفسه؟ أليس هذا بالضبط ما يطلبه الله لفضح ما تخفي النفس الكاذبة (النفس التي تظهر ما لا تبطن)؟

- ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: 61]

وكانت هذه قصة البشرية منذ بدء الخلق، وهي قصة الرسل جميعاً، جاءوا أقوامهم بالبينات ولكنّ أصحاب القلوب التي أُقفلت، والأذان التي صُمت، والأبصار التي أُغشيت، لم تكن النتيجة بالنسبة لهم ستختلف سواء بوجود الآيات أو بعدم وجودها:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البقرة: 6-7]
- ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠﴾ [يس: 10]

نخلص إذاً إلى نتائج جمّة .

أولاً، إنّ استخدام الكافرين لآيات الله ليست أكثر من الحجة الواهية التي يجادلوا بها ليصدوا عن سبيل الله، فكان السواد الأعظم من الناس ضحية أصحاب الحجج التي تبدوا في ظاهرها مقنعة ولكن في باطنها واهية هزيلة لأنهم هم أنفسهم غير مقتنعين بها، ولكنهم استخدموها ليصدوا عن سبيل الله:

- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٥ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنعام: 25-26]

والله سبحانه يبين لنا أنّ هؤلاء ليسوا أكثر من كاذبين، فهم حتى لو رأوا الحقيقة المطلقة (وهي سوء عملهم يوم القيامة) لأصروا على الكذب، فهم كعادتهم يظهرون الصدق ولكن ما تخفي نفوسهم أكبر، قال تعالى:

- ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢٧﴾ [الأنعام: 27]

ويأتي الرد الإلهي المباشر ليفضح حقيقة نفوسهم:

- ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام: 28]

فالله (رغم علمه بكذب دعواهم) قد منحهم هذه الفرصة في الحياة الدنيا:

- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٣٤﴾ [الأعراف: 134]

ولكن ما الذي حصل فعلاً بعدما دعا موسى ربه ليكشف عنهم السوء:

- ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: 135]
- ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الزخرف: 50]

فحقيقة أمرهم هي ما كانوا قد ذكروه من ذي قبل لموسى:

- ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف: 132]

ثانياً: ولما كانت الحالة كذلك جاءت آيات الله فقط للفئة المؤمنة ليتدبروها، وهم المؤهلون فقط الوصول إلى المعرفة التي تنطوي عليها تلك الآيات:

- ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس: 10-11]
- ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: 9]
- ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: 18]

فالمؤمنون بتلك الآيات هم فقط المؤهلون لتلك المعرفة، وهم من يجب أنْ يتصدوا للكشف عن ذلك العلم، ولكن من يريد التصدي للكشف عن تلك الآيات بحاجة أولاً إلى الإطار النظري الذي من خلاله ستجري الدراسات النظرية والتطبيقية، وإلاّ ما كان أكثر من مجادل ظالم لنفسه ولغيره:

- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الحج: 8-9]

وهذا بالضبط ما نحاول تقديمه في هذا البحث، نظرية علمية مستندة في جوهرها وأدواتها على المنهج القرآني في محاولة لكشف أسرار الكون.

ثالثاً: نستنتج إذاً أنّ هذه الآيات ليست لهداية الناس وهي كذلك ليست لضلالهم، بل هي لتمييز الفئتين (الفئة المؤمنة والفئة الضالة)، ومصداق ذلك في كتاب الله:

- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: 213]

فلذا نسأل الله أنْ يهدينا لما اختلف فيه الناس من الحق، وأنْ يجعلنا من المؤهلين لتلقي آيات الله، المستكشفين للعلم الذي انطوت عليه تلك الآيات، لاسيّما ونحن نرى أنّ الله سبحانه لم يقفل الباب على المؤمنين لامتلاك أدوات العلم ثم الكشف عنه، فالله سبحانه قد ترك الباب مفتوحاً لامتلاك الحكمة مثلاً:

- ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البقرة: 269]

وهو كذلك قد صرّف الآيات للعالمين:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥﴾ [الأنعام: 105]

والله سبحانه قد تعهد بكشف تلك الآيات لنا:

- ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ [البقرة: 187]
- ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾ [البقرة: 219]
- ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٤٢﴾ [البقرة: 242]
- ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عمران: 103]
- ﴿...كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩﴾ [المائدة: 89]
- ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ [النمل: 93]
- ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾ [ص: 88]

وفي الوقت ذاته تعهد الله أن يبقي هذا العلم بعيداً عن أيدي المستكبرين المفاجرين:

- ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ [الأعراف: 146]

إنّ الغاية المرجوة تتمثل بأنْ يتوقف المؤمنون بهذه الآيات عن وصفها بالمعجزات حتى لا يكون هذا الفهم دافعاً لهم للتوقف عن التفكر بها، ومن ثم العجز عن تبيانها ومعرفتها، وفي ذلك يتسلح من يتربص بهم للانقضاض عليها فيصفها حينئذ بالخرافات التي لا ترضى عقولهم الباحثة عن الحقيقة حسب زعمهم، والمفارقة العجيبة كيف استطاع أولئك التغرير والإيقاع بأبناء المسلمين أنفسهم في هذا الشرك، فبإلقاء حتى نظرة سريعة في أدبياتهم كأعمالهم التلفزيونية والسينمائية والروائية وحتى قصص الأطفال نجدها مليئة بما يسمونها هم أنفسهم بالخرافات، ففي حين أنّ أفلام جيمس بوند وميكي ماوس والسوبرمان ومختبر دكستر هي قصص خيال علمي (ومطلوب منا أنْ نفهمها كذلك)، ينظر إلى قصة موسى وسليمان وداود في قرآننا على أنّها خرافات، وفي حين أنّ غزو الفضاء أمر لا مفر منه لمستقبلهم، يُطلب منّا أنْ ننظر إلى رحلة الإسراء والمعراج في ماضينا على أنّها حلم حصل وصاحبها في عميق نومه، يا الله كم هو التفكر حتى في أعظم ما نؤمن به (وهي أبجديات عقيدتنا) محرم علينا!!! لقد حان الوقت أنْ نرجع إلى التفكير الصحيح، ولا أعتقد (وقد يشاركني الكثيرون الرأي) أنّ هناك بداية أفضل من مسلمات عقيدتنا، فمن غير المفهوم أنْ نؤمن بصدق المصدر الذي جاءت منه هذه العقيدة، ومن ثم صحة آياتها وبيّناتها، لنبدأ البحث عن الحقيقة في كل مكان إلا بين سطورها، متعذرين باستحالة الوصول إليها، فهي في ظن حتى أبناء هذا الدين معجزات يصعب التوصل إلى قرارها. والسؤال الأبسط هو: هل فعلاً حصل وأمعنا التفكير في تلك الآيات كما أمرنا من أنزلها؟ وهل فعلاً اجتهدنا في التوصل إلى الاستنتاجات لفهمها؟ أم هل توقفنا واكتفينا بفهم أسلافنا لها وحرمنا على أنفسنا انتهاك فهمهم لها؟ إنّ ما نحتاج إليه ليس أكثر من الجرأة في البحث عن الحقيقة، وإطلاق العنان لخيالنا للخوض في آيات الله في الكون وفي أنفسنا لاستكشاف عجائب الله وقدرته فيها، لندرك أنّها مبنية على أصول وقواعد متينة وليست جزءاً من عبثية توهمها من أخذته العزة بالإثم وأصر على الإنكار والمجادلة، وهي ليست معجزات توهمها من آمن بها ولم يسعفه فكره ولا علمه على فهمها بأنفسهم ومن ثم إفهامها غيرهم.

فنحن نعتقد جازمين إنْ كانوا هم عجزوا عن فهمها لأنهم لم يعطوا أنفسهم فرصة التفكر بها، فلن نعدم نحن الوسيلة لفهمها بحول الله إنْ نحن منحنا أنفسنا فرصة سبر أغوارها بالمنهج الصحيح. وهذا الاعتقاد صادر عن عقيدة مفادها أنّ ما يصدر عن عليم خبير لا يجوز أنْ يكون فيه عبثية، فهو نفسه ينفي عن ذاته وعن كل ما يصدر عنه في مواضع كثيرة أي شكل من أشكال العبثية:

- ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ٤٩﴾ [القمر: 49]

فنحن إذاً نحتاج إلى الوسيلة المشروعة للوصول إلى الغاية الكريمة، إنّنا بحاجة إلى السفينة التي تنقلنا في أعالي البحار المظلمة إلى الشاطئ الآمن. وبكلمات أخرى فحتى نخوض في بحور تلك المعرفة الهائلة لابد

من الاستناد على الحجة والبرهان، وهي التي لا تتأتى إلا بالتأطير النظري والتدليل العملي، فما نحن بحاجة إليه هي نظرية علمية تستند إلى مرجعية ثابتة ترسم خلالها الخطوط العريضة للتفكير السليم في الوصول إلى النتائج المعقولة بناءً على مقدمات صحيحة.

وهذا ما نحاول تقديمه في هذا الكتاب، نظرية فكرية علمية مبنية على المرجعية العقائدية لكشف العلم الذي انطوت عليه آيات الله في الكون وفي النفس البشرية، وسيكون المثال العملي الذي نقدمه للتدليل على الحاجة لاستبدال التفكير العقائدي بالتفكير المادي هو علم اللغة بصبغته الغربية المادية.

إلى الباحث:

نقدم في هذا الكتاب مثالاً على طريقة جديدة في التفكير العلمي التي، إنْ صحت حسب ظننا، تفتح آفاقاً لا حدود لها لخيالنا العلمي، وهذه الطريقة الجديدة مستندة على المرجعية العقائدية التي لطالما استُثنيت في مسيرة بحثنا عن الحقيقة العلمية، فلقد أصبح ما يسمى بالطريقة العلمية في البحث العلمي من المسلّمات التي لا توضع على طاولة النقاش أو المساءلة، وأصبحت القناعة راسخة لدى الكثيرين أنّ المعرفة لن تتأتى إلاّ إذا رشحت عن استخدام تلك الطريقة. ونحن في هذا الكتاب نقدم الدليل على وجود البديل الأمثل لما يسمى الطريقة العلمية للبحث العلمي وهي الطريقة العقائدية (القرآنية على وجه الخصوص) للبحث العلمي.

وربما يدرك جميعنا أنّ قوة النظرية (أي نظرية) تقاس بما تستطيع تقديمه من تفسيرات لظواهر تبدو في ظاهرها متباعدة وغير مترابطة، فإذا استطعنا استخدام الفرضيات نفسها لتفسير الظواهر المتعددة والمتباعدة، ازدادت القدرة التفسيرية للنظرية، ولكنّ الأهم من ذلك أنّ النظرية الأمثل هي التي تستطيع تفسير ما لم تستطع النظريات المنافسة أنْ تفسره، وهذا ما يسمى بالقدرة التنبؤية للنظرية. إنّنا نحاول أنْ نبين أنّ القدرة التنبؤية للطريقة العقائدية في البحث العلمي تفوق أضعاف أضعاف القدرة التنبؤية للطريقة العلمية المادية في البحث العلمي. إنّ ما هو مطلوب من أيّ باحث في شتى مجالات الفكر الإنساني أنْ يحاول استخدام الأسلوب والمنهجية نفسها (أو حتى تصحيح هفوات هذه المنهجية) لاختبار الفرضيات العلمية ومحاولة الإجابة على الأسئلة المطروحة على طاولة البحث في مجال تخصصه.

إنّنا على يقين أنّ أول ما سيفاجئ الباحث (إن هو اتبع هذه المنهجية) هو الشك الذي سيلقي ظلاله على العديد من المسلّمات التي قلما تم التشكيك بصحتها، وسيأخذ النقاش منحى جديداً يتم من خلاله إلقاء الضوء على الأسئلة من زوايا جديدة، وستفهم الأمور بطرق جديدة، وستتكشف المبهمات تباعاً، ولن يتم عندها جر المسائل لتوافق التصورات، بل هو العكس تماماً حيث ستوافق التصورات (أي الافتراضات النظرية) المسائل الموضوعة على طاولة البحث.

إنّ ما هو مطلوب هو عرض المسائل في شتى مجالات الفكر الإنساني بالطريقة العلمية العقائدية، وإذا ما تراكمت المعرفة وبدأت خطوط التفكير تتشابك، تجلت الصورة عن فكر علمي عقائدي تميّز عن غيره من

أنماط التفكير المادية، وهو بلا شك ما هو مطلوب أولاً وقبل كل شيء حتى تتحقق للأمة استقلاليتها في التفكير لتكون أمة متبوعة لا أمة تابعة مقلدة حتى لمن هم دونها من الأمم، فضاعت هويتها واستحكم الجدل حتى على أبجديات تفكيرها.

ولا شكّ أنّ الباحثين عن الحقيقة المستكشفين لها هم المُعَوّل عليهم ليشكلوا الهوية الفكرية والطابع المميز للأمة.

ولعلي أجد من الضروري التنبيه إلى خطر عظيم ألمّ بالأمة وهو الانقياد وراء الأمم الأخرى ليس فقط سياسياً واقتصاديا واجتماعيا وإنما (وللأسف الشديد) فكرياً، فلقد أصبح من المسلمات لدى أبناء الأمة (حتى أشدهم تمسكاً بعقيدته) أنّ النجاة كل النجاة لن تكون لهذه الأمة إلاّ إذا تفوقت على الأمم الأخرى، وقد يرد البعض على الفور بالقول: وما المشكلة في ذلك؟ ألا يجب أنْ نبحث عن التفوق لنتمكن من منافسة الأمم الأخرى؟ فنقول ليس في ذلك مشكلة، وإنما يكمن الخطر أننا نبحث عن التفوق باستخدام أدوات وطرق الأمم الأخرى، وبكلمات أكثر دقة لقد آمن الكثير من أبناء هذه الأمة أننا لن نتفوق على الغرب الذي بنا الأسلحة الذرية والنووية إلا إذا استطعنا بناء أسلحة ذرية ونووية مثلهم، وآمن الكثيرون أننا لن نتمكن من السيطرة على الفضاء إلاّ إذا استطعنا بناء الطائرات والمركبات الفضائية كما فعل الغرب، ولن نتمكن من السيطرة على البحار إلا إذا استطعنا بناء الغواصات والسفن العملاقة كما فعل الغرب، والقائمة لا تنتهي، ولكن ألم يخطر ببال أبناء هذه الأمة سؤال واحد وهو: هل من الممكن أنْ نسيطر على البحار بدون الغواصات والسفن؟ وهل من الممكن أنْ نسيطر على الفضاء بدون الطائرات والمركبات الفضائية؟ وهل من الممكن امتلاك أسلحة (وإن لم تكن نووية وذرية) تفوق أسلحة الغرب الذرية والنووية؟

فهل أشغل أبناء المسلمين فكرهم بشيء لا يكون الغرب قد قطع فيه أشواطاً وأشواطا؟

نعم ذلك ما ندعو إليه: أن نشغل فكر الناشئة من أبناء المسلمين بما لم يشغل الغرب فكرهم فيه، إننا نطلب من علمائنا ومعلمينا ومربينا ومدارسنا وجامعاتنا وإعلامنا توجيه الناشئة إلى أنّ بالإمكان البحث عن الحلول ولكن ليس بمنهجية وأدوات الفكر الغربي لأننا بكل بساطة لن نلحق به، وإنما بأدوات ومنهجية فكرنا العقائدي المستقل والمتفرد عن غيره، نعم إننا بحاجة أنْ نغرس في أذهان أبنائنا أننا يمكن أنْ نسيطر على الفضاء بغير الطائرات والمركبات الفضائية، وأننا سنسيطر على البحار بغير الغواصات والسفن العملاقة وأننا سنوقف تهديد الأمم الأخرى لنا بغير الأسلحة الذرية والنووية.

إنّ الصراع بينا وبينهم ليس بمن يملك طائرة أكثر تطورا أو قنبلة أكثر تدميراً أو غواصة أعظم خطراً، أي (س مقابل س+1)،

ولكن الصراع بيننا وبينهم هو بين من يملك طائرة مدمرة (هم) ومن يملك طيراً أبابيل (نحن)، بين من يملك القنبلة الذرية (هم) ومن يملك الريح العقيم (نحن)، أي بين (س مقابل ص)، وقد يقول علماء وباحثوا الأمة: وهل هذا ممكن؟ فنرد عليهم متسلحين بقوله تعالى:

- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾ [الأنفال: 59]

فلينفق الغرب والشرق ما شاءوا على بناء ترسانتهم من الأسلحة الفتاكة، ولينفذوا (إن استطاعوا) من أقطار السموات والأرض، ولكنّا على يقين أنهم لن يسبقونا وإلى الأبد، فسيذهب كل ما بذلوا من جهد ومال في ذلك هباءً منثورا يوم تتجلى لهذه الأمة ما اختصها الله به من آيات وبيّنات وصرف عنها غيرهم . فماذا ستكون قدرة أطبائهم مقارنة مع طب عيسى بن مريم؟ وماذا ستفعل سفنهم مقارنة مع عصا موسى، وماذا ستفعل دباباتهم حيال جبال داوود؟ وماذا ستفعل عساكرهم وجيوشهم مقارنة بجيوش سليمان؟ وماذا ستكون قدرة طائراتهم ومركباتهم الفضائية مقارنة مع قدرة البراق الذي امتطاه المصطفى يوم أسري به؟



النظرية العالمية الإسلامية لكشف أسرار الكون

الفصل الثاني



الفصل الثاني: نظرية لغوية جديدة من منظور قرآني

ملخص

نحاول في هذا البحث تقديم نظرية لغوية (linguistic theory) جديدة من منظور قرآني، مستفيدين في الوقت ذاته من النظرية اللغوية العالمية. وتتلخص النظرية الجديدة بأنّ القرآن الكريم يثبت من حيث المبدأ وجود علاقة مباشرة (one-to-one correspondence) بين الكلمة (word) ومعناها (meaning) ، ولكن هذه العلاقة قد تشوَّشت بسبب ما أُدخل إليها منذ بدء الخلق حتى غدت تلك العلاقة، بالمفهوم اللغوي الغربي علاقة "اعتباطية" (arbitrary). ونسميها نحن في إطار هذا البحث علاقة " ظنية "(guessing) ، والافتراض المطروح هنا هو أنّ كشف العلاقة الحقيقية بين الكلمة ومعناها (والتي نسميها في إطار هذا البحث "بالحكمة") تمكننا من معرفة سر العلوم أجمعها وبالتالي سرّ الكون، فوحدة الكون وبالتالي وحدة العلوم البشرية جميعها مرتكزة على معرفة سر تلك العلاقة "أي الحكمة."

مقدمة

لقد كان الهدف المنشود لجميع النظريات اللغوية المتعاقبة البحث في العلاقة بين الكلمة (word) ومعناها (meaning) أو ما يسمى بالشكل (form)والمضمون (content)، فقديماً تحدث فلاسفة الإغريق مثل أفلاطون وأرسطو عن mimesis أو ما يسمى theory of imitation وتحدث الجرجاني مثلاً عن النظم، وحديثاً تحدث اللغوي السويسري De Saussure عن (langue parole) أوsignifier and signified ، وتحدث Chomsky عن deep surface structure أوcompetence performance، وكانت النتيجة التي أجمعت عليها جميع النظريات اللغوية المستندة على الدليل المادي أنّ العلاقة بين الكلمة ومعناها لا تعدو أكثر من علاقة اعتباطية arbitrary ، فليس هناك مثلاً علاقة مباشرة بين كلمة كرسي وذلك الشيء الذي نجلس عليه، فهو كرسي بالعربية و chair بالإنجليزية و "..." بالفرنسية وهكذا. أضف إلى ذلك أنّ الشيء الواحد قد يشار إليه بعدة تسميات حتى باللغة الواحدة، وهناك كمٌّ هائل من التسميات التي تشير إلى أشياء غير ملموسة أصلاً مثل الحب والكره، وأشياء غير محددة بالنسبة للعقل البشري كالجنة والنار والملائكة والجن والشياطين .انظر (Palmer 1981) ، وقد أدت هذه الأمور بعلماء الغرب المحدثين إلى التوصل إلى شبه إجماع مفاده أنّ العلاقة بين الشيء واسمه هي علاقة اعتباطية arbitrary، الأمر الذي حدا بالغالبية العظمى من علماء اللغة (أو حتى الناس العاديين) بافتراض عبثية البحث عن (أو حتى في) تلك العلاقة.

ونحن نفترض في إطار هذا البحث أنّ هذه النتيجة المخيبة للآمال (وهي عدم جدوى البحث عن العلاقة بين الشيء ومسماه) كانت نتيجة حتمية للفكر الذي يفصل فصلًا كاملًا (تصل إلى درجة الطلاق) بين

العلم المادي (science) كعلم الطب والهندسة مثلًا وأصله الديني الاعتقادي، فهم ينكرون أنْ يُزَجَّ علم الدين كعلم اعتقادي (theology) في البحث عما يسمى الحقيقة العلمية البحتة (pure scientific knowledge)

ولما كان هذا البحث مستنداً إلى الأساس القرآني، كان لا بد من افتراض عودة التزاوج بين العلوم المادية البحتة وأصولها الدينية الاعتقادية، وهذه العودة التي نظن أنها محمودة قد تشكل – برأينا – ركيزةً أساسية، وهي عدم فصل الدين (أي الاعتقاد الإيماني) عن العلوم المادية، وهذا التزاوج هو – باعتقادنا – ما هو مطلوب لنتمكن من حيث المبدأ، من السير في الاتجاه الصحيح في بحثنا عن معرفة سر الكون بكليته أو حتى مكنونات الأشياء بجزئياتها.

فصل الدين عن العلم المادي

لقد نجح الفكر الغربي نجاحًا باهرًا في فصل ما أسماه حقيقة "العلم" وما هو اعتقاد "الدين"، حتى أصبح زج الدين في تلك العلوم أمراً لا يعدو أكثر من تقهقر إلى الوراء، وذهب الكثيرون إلى أنّ الفكر الديني هو أحد مثبطات الخيال العلمي الجامح. وسنحاول في هذا البحث الرد على هذا الادعاء لنثبت عكسه تمامًا، أي أنّ الفكر الديني يقدم لنا خيالًا علميًا جامحًا لا يرضى العلم المادي الخوض فيه.

وينطلق ذلك من حقيقةٍ مفادها أنّنا - نحن المسلمين - نؤمن بفرضية التزاوج بين المعرفة المكتسبة "attained knowledge" والاعتقاد الديني "theology"، ونفترض عبثية الفصل بينهما، فهي بمثابة فصل الجسد عن الروح، وسنحاول في هذا البحث تقديم المثال على عبثية فصل العلوم المادية البحتة عن طابعها الديني الاعتقادي الإيماني، ونقطة البداية لدينا - نحن أصحاب هذا الفكر تنطلق عندما نحاول إعادة الربط بين العلوم المادية والعلوم الإنسانية.

تساؤل بسيط: لماذا يتقبل الفكر الغربي فكرة تداخل التخصصات حتى الإنسانية منها وتأسيس ما يسمى (Interdisciplinary Fields)، وفي الوقت ذاته يرفض زج الدين على وجه الخصوص بين تلك التخصصات؟ وبكلمات أدق، لماذا يتقبل الفكر الغربي ودون مساءلة أن يتداخل علم الطب مثلاً مع علوم الحاسوب أو علم الأحياء أو علم الكيمياء أو علم النفس أو حتى الاجتماع والتاريخ ولكنه يرفض رفضًا قاطعًا أنْ يتداخل مع العلوم الدينية؟ ولقناعتنا نحن بأنّ الدين هو روح الأشياء جميعها، فإنّ الفهم الصحيح للنظريات العلمية جميعها يتجلّى بأنْ توضع تلك النظريات في إطارها الديني الاعتقادي، وهذه الفرضية تستند إلى دليلين أحدهما مادي بحت والآخر اعتقادي إيماني.

أما المادي فهو فرضية وحدة الكون، فالرياضيات والفيزياء والطب والهندسة واللغة، الخ، تنتهي جميعها إلى أصل واحد، وهي بالتالي مسيّرة جميعها بقانون واحد، ومعرفة ذلك القانون يحل لغز الكون بأسره (وهو ما شغل عقول العلماء على مر الزمان) فالطبيب هدفه معرفة سر الحياة، والفيزيائي هدفه معرفة فيزياء الكون، والرياضي هدفه التوصل إلى المعادلة الرياضية التي تتحكم بدقة الكون، وعالم النفس هدفه معرفة سر

الحياة المودع في النفس البشرية، واللغوي هدفه معرفة اللغة التي بها يصاغ ذلك القانون الإلهي؛ أما الدليل الاعتقادي فيلتقي تماما مع المادي، ويتمثل بأنّ جميع الشرائع السماوية تثبت أنّ هذا الكون وجميع ما فيه جاء من مصدر واحد وهو محكوم بقانون إلهي واحد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

علم اللغة وعلم الدين

وإذا ما صح هذا الافتراض فإننا بحاجة إلى أنْ نحاول إعادة الربط بين العلم المادي والعلم العقائدي، ومثالنا الذي نقدمه في هذا البحث هو علم اللغة بطابعه المادي الغربي من جهة وطابعه الديني الاعتقادي - وهنا نقصد الدين الإسلامي - من جهة أخرى. والسؤال الذي نطرحه هنا هو: هل نجد في الفكر الإسلامي متمثلًا بمصادر التشريع كالقرآن الكريم والسنة المطهرة ما يمكن أنْ يساعد علماء اللغة على حل أكبر وأهم سؤال مطروح بين أيديهم وهو لغز العلاقة بين الكلمة "word" ومعناها "meaning" ؟ والجواب الذي نحاول أنْ نقدمه في إطار هذا البحث هو نعم ، فالقرآن الكريم يقدم لنا جوابًا شافيًا على أكبر سؤال يقظ مضاجع علماء اللغة.

إعتراف

قبل أنْ نحاول استعراض الإجابة على السؤال السابق فإنّنا نجد من الضروري التأكيد على ما يلي: إنّنا ندرك أنّ كلامنا – كما قال أحد العلماء المسلمين – هو قول صحيح يحتمل الخطأ، وكلام غيرنا خطأٌ يحتمل الصحة، لذا نؤكد أنّه إذا كانت هذه النظرية الجديدة بكليّتها أو بجزئيّاتها تتعارض مع أصول الشريعة الإسلامية فاضربوا بها عرض الحائط فهي لا تعدو أكثر من خيال فكري زائف، أما إذا كانت هذه النظرية الجديدة بكليّتها أو جزئيّاتها لا تتعارض مع أصول الشريعة الإسلامية، فهي باعتقادنا تطرح تصورًا جديدًا عن نشأة اللغة وتطورها والأهم من ذلك كله: جوهرها. وهذا الاعتراف صادر عن عقيدة مفادها أنّنا لا نحاول أنْ نستعرض ما في علم اللغة المادي لإثبات صحة القرآن الكريم، بل هو العكس تماما، فالقرآن الكريم الذي هو كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو صحيح على إطلاقه.

لهذا تتلخص مهمتنا في استعراض ما في كتاب الله لإثبات صحة أو خطأ النظريات اللغوية المادية، فلا يمكن أنْ يستخدم ما هو مشكوك فيه (النظرية اللغوية) لإثبات صحة ما هو مطلق الحقيقة والثبات (القرآن الكريم). ولما كان هذا البحث هو لغوي بجوهره، فلن نحاول استعراض (أو الخوض في) الآراء العقائدية والفقهية فيما نقول، أما الآراء اللغوية فهي ستشكل جل النقاش للقبول أو الطعن. لذا فإن جميع ما سيرد في هذا البحث من اجتهادات (حتى العقائدية منها) مبني على أساس لغوي.

الافتراض النظري

إنّنا نزعم، مستندين إلى الاعتقاد الإيماني والمادي بوحدة الكون، أنّ شتى مجالات الفكر الإنساني كالطب والهندسة والرياضيات وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا وحتى الشعوذة مُستندةٌ – من حيث المبدأ – في جوهرها على أساس لغوي، وبكلمات أخرى فإنّنا نفتري الظن بأن علم الطب الحقيقي مثلا أساسه اللغة وليس التشخيص والدواء المادي كما هو حاصل في علم الطب المادي الغربي، والجديد في هذا الافتراض أنّ عدم قدرة علم الطب على الوصول إلى هدفه النهائي (وهو معرفة سر الحياة) يعود إلى كونه لا يستند إلى الإطار النظري الصحيح، ولا يستخدم الأداة الصحيحة في المعالجة، فإذا أراد علم الطب أنْ يكتشف سر الحياة فيجب – برأينا – أنْ يترك إطاره المادي وطرقه التقليدية في البحث عن الأدوية المادية وطرق المعالجة، ويبدأ البحث عن طرق جديدة فحواها لغوي، وهذا يعني أنّ المرض يشفى بالكلمة – وهنا لا ندعي أنّ المرض قد لا يشفى بالمادة – بل على العكس فقد يشفى المرض بالمادة ولكنّ الشفاء بالمادة يبقى محدّدا بالكم والنوع، ولكن الشفاء بالكلمة هو شفاء مطلق.

وإذا ما صحّ هذا الافتراض فإننا نخلص إلى نتيجة مفادها أنّ علم الطب لا يمكن أنْ يصل إلى هدفه المنشود ما دامت فلسفته وأدواته مادية بحتة، وهذا ينطبق بالضرورة على شتى مجالات الفكر الإنساني كعلم الرياضيات والفيزياء وعلم النفس والاجتماع وحتى علم اللغة، فجميعها مُسَيَّرةٌ بقانون إلهي واحد، ومهمة الجنس البشري تتلخص بالبحث عن ذلك القانون ليتمكن من تسخير كل شيءٍ لخدمته مصداقاً لقوله سبحانه:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ... ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: 29]
- ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: 20]
- ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: 13]

الدليل القرآني الذي نظن أنه يدعم هذا الافتراض

قد يتسرع القارئ بالتوصل إلى استنتاج فحواه أنّ ما نقوله لا يعدو كونه هراءٌ لا أكثر، فهو يتساءل مستغرباً : كيف يمكن أنْ نترك علم الطب المستند والمؤسس على المشاهدة والتجربة لنبدأ البحث عن كلمات "لغة" بها يشفى المريض؟ ! وكيف لنا أنْ نترك المعادلات الرياضية والفيزيائية لنبحث عن كلمات "لغة" تفسر كيفية انتظام الكون؟ ! أليس هذا هراء؟ أليست تلك إذاً دعوة للعودة إلى الشعوذة والدجل؟ هل يطلب منّا أنْ نأخذ المريض إلى رجل مشعوذ ليقرأ علية بعض الكلمات حتى يشفى؟ ! هل يطلب منا أنْ نبحث عن كلمات لنجعل الرياح تذهب باتجاه دون آخر؟ ! هل نبحث عن كلمات بها يسقط المطر إذا انحبس فترة طويلة؟!

جواب: نقول هنا جازمين أنّنا لن نذهب إلى هؤلاء لأنهم مشعوذون ولا أكثر، فهم لا يعلمون الكلمات "اللغة الحقيقية" التي بها يشفى المريض وبها ينزل المطر أو بها يتحرك الريح، ولكن ذلك لا ينفي أنّ المبدأ (أي استخدام اللغة لتحقيق المراد) مقبول. وهنا يتساءل القارئ وأي أساس قرآني في ذلك؟

رأينا: نحن نزعم الفهم أنّ هناك أدلة عديدة في القرآن الكريم تؤكد على صحة هذا الافتراض يتلخص جوهرها في الآيات القرآنية الآتية:

- ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾ [البقرة: 117]
- ﴿... إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾ [آل عمران: 47]
- ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: 40]
- ﴿... إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥﴾ [مريم: 35]
- ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: 82]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٦٨﴾ [غافر: 68]

أليس معنى ذلك أنّ الله سبحانه إذا أراد أنْ يخلق الخلق أنْ يقول له: " كن فيكون"؟ وإذا أراد أنْ يشفي المريض يقول له: " كن فيكون"؟ وإذا أراد أنْ يسوق المطر إلى جهة معينة أنْ يقول له: "كن فيكون"؟ ولمّا أراد أنْ ينتظم الكون في فيزياء حقيقية قال: " كن فيكون"؟ وإذا أراد أنْ يهلك الأرض والكون بأسره وينهي الحياة أنْ يقول: "كن فيكون"؟ وهل الله سبحانه بحاجة إلى مادة يعطيها للمريض حتى يشفى أو بحاجة إلى مادة يعطيها للميت حتى يحيا؟ أليست هي الكلمة " كن فيكون"؟ وهنا يتحفز الكثيرون لدحض هذا الافتراض بالقول أنّ هذا يخص الإله وحده، فكيف لنا بما للإله نفسه؟ وهل يجوز أنْ نبدأ بافتراض كهذا أصلاً؟ أليست تلك المعرفة خاصة بالله وحده؟ فنرد على ذلك بخفض السقف لتصورنا ونقول: ألا يذكر القرآن أنّ الله سبحانه قد منّ على بعض النبيين كداوود وسليمان وعيسى (بما تسمونه أنتم) "بمعجزات" التحكم ببعض فيزياء الكون؟ فكيف كان يتحكم داوود بالجبال؟ وسليمان بالجن والريح والطير والنمل؟ وكيف كان عيسى عليه السلام يحيي الموتى ويشفي الأكمه والأبرص والأعمى؟ فهل كان عنده صيدلية تحتوي على عقاقير الـ... و الـ... ، الخ؟ ألمْ يكن يحيي الموتى ويشفي المرضى بالكلمة "اللغة"؟ وهل تخفى قصة داوود مع الجبال والحديد أو قصة سليمان مع النمل والهدهد أو الريح على أحدٍ؟ والسؤال الذي لن ينفك القارئ عن طرحه مرة أخرى هنا هو: أليست تلك المعرفة خاصة بالله وحده؟ أليست تلك "المعجزات" خاصة بالرسل من الخلق؟ وهل نستطيع نحن البشر أنْ نصل إلى تلك المعرفة (أي معرفة الكلمة التي بها يشفى المريض، والكلمة التي بها يسقط المطر أو يحبس، والكلمة التي ينبت بها الزرع)... الخ؟ والجواب الذي نورده في إطار هذا البحث هو نعم. وهنا لا بد من خفض سقف تصورنا مرة أخرى ونقول: كيف عرف صاحب موسى ما لم يعلمه نبي الله موسى نفسه ليطلب صحبته:

- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ [الكهف: 66]

وكيف استطاع صاحب سليمان عليه السلام أنْ يحضر عرش بلقيس قبل أنْ يرتد طرف صاحبه:

- ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠﴾ [النمل: 40]

وما الذي تعلمه ذاك العبد الصالح الذي مرّ على القرية الخاوية على عروشها حتى يريه الله كيف يحيي الموتى:

- ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ [البقرة: 259]

السؤال: أليس هؤلاء عباد الله كما نحن عباد الله؟ رأينا: نعم إننا مؤهلون نحن الناس جميعاً لتلك المعرفة إنْ استطعنا الحصول على العلم الحقيقي الذي حصل عليه هؤلاء الناس، فهم (كما نحن) عباد لله، فما الذي يمنع أنْ يحصل ذلك لنا ما دام أنّه قد حصل لغيرنا؟

ولعلنا بحاجة أنّ نذكّر القارئ الكريم أنّ من هو أقل كرامة مني ومنك (الهدهد) أحاط بعلم لم يحط به من هو أفضل مني ومنك (نبي الله سليمان):

- ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾ [النمل: 22]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إن العلم الذي نقصده هنا هو علم الكلمة الذي به نتمكن من كشف العلاقة بين الأشياء ومسمياتها الحقيقية، عندها نستطيع إذاً تحقيق المراد بالكلمة، أي إذا استطعنا أنْ نعرف التسميات الحقيقية للأشياء فإنّنا عندئذٍ نستطيع أنْ نتعامل معها بكل سهولة ويسر، فإذا استطعت أنْ تعرف الاسم الحقيقي للجبل مثلاً، فإنك تستطيع حينئذ أنْ تخاطبه باسمه وبالتالي سيستجيب لك ذلك الجبل، وإذا استطعت أنْ تعرف كيف تخاطب الطير، فإنها ستستجيب لك بلا شك، أما ما دمت أنت لا تعرف اللغة التي تخاطب بها الطير وهو كذلك لا يعرف اللغة التي بها يخاطبك، فسيبقى ذلك الصمت الرهيب مطبقاً وسيبقى كل يدور في فلك معزولاً عن الآخر، وستبقى سيطرة الإنسان حتى على ظواهر الكون البسيطة سيطرة منقوصة





وهزيلة، فلن يستطيع الإنسان أنْ يتغلب على المرض مثلاً إذا لم يتعلم اللغة التي بها يخاطب ذلك الشيء الرهيب كما تعلمها عيسى بن مريم عليه السلام، ولن يسخر الطير تسخيراً كاملاً إلا إذا تعلم تلك اللغة التي بها يخاطب الطير كما تعلمها سليمان عليه السلام، فخلاصة القول أنّ معرفة المسميات الحقيقية للأشياء "أي كشف كُنْه العلاقة بين الشيء واسمه الحقيقي" (وهو ما نسميه في إطار هذا البحث "بالحكمة" لأسباب سيرد ذكرها لاحقا) كفيل بحل لغز العلاقة بين الإنسان والكون.

إنّ هذا الافتراض مستند على ملاحظة بسيطة مفادها أنّ جميع ما في الكون له اسمه (لغته) الذي به يخاطب، فعندما تعرف ذلك الاسم تعرف عندها كيف تخاطبه، ولنضرب على ذلك مثالاً بسيطاً:

تخيل أنّك واسمك أحمد تجلس في قاعة المحكمة لجنحه مع جيرانك علي وسالم وحصل أنْ طلب القاضي من مراسله أنْ ينادي على أحمد، لرد أحمد على ذلك النداء، أليس كذلك؟ ولو حصل أنْ نادى على علي لرد علي بالتأكيد، ولو حصل أنْ نادى على سالم لقام سالم ملبيا النداء، ولكن تصور معي –عزيزي القارئ- أنّ مراسل القاضي قد أخطأ ونادى على "سعيد" بدلاً من أحمد أو علي أو سالم، فهل كان أحمد أو علي أو سالم سيظن أنّه المقصود بالنداء؟ وهل كان أي منهم سيستجيب لنداء مراسل القاضي حتى ولو كرر النداء مرات ومرات؟ فالجواب هو النفي بكل تأكيد، والسبب أنّ مراسل القاضي لم يذكر أي شخص مطلوب باسمه الحقيقي، وكذلك هي الصورة في الكون بأسره، ننطق الأشياء بغير مسمياتها الحقيقية، فلا تعلم أنّها هي المقصودة بذلك النداء، وبالتالي لا تستجيب لندائنا!

والتساؤل الذي يطرحه القارئ هنا هو: هل نستطيع نحن البشر معرفة المسميات (اللغة) الحقيقية للأشياء حتى نستطيع مخاطبتها؟ وإذا لم نستطيع ذلك فما العمل إذاً؟

جواب: لنبدأ بالشق الأخير من هذا التساؤل .

نقول أنّنا ما دمنا (حتى بعد تاريخ البشرية الطويل على الأرض) لا نعلم كيف نخاطب الأشياء بمسمياتها الحقيقية، فلا بد إذاً من استخدام الوسيط أو الوسيلة التي تساعدنا على مخاطبة الأشياء، فالطبيب يستخدم الدواء لمخاطبة المرض، والفيزيائي يستخدم القانون الفيزيائي لمخاطبة الظاهرة الكونية، والمزارع يستخدم المبيدات الحشرية ومركبات كيميائية لمخاطبة الزرع، وهكذا، وبكلمات أدق فإذا كنّا لا نعلم الحكمة "الكلمة" التي بها يشفى المريض فلا بد من استخدام الدواء، وإذا كنّا لا نعرف الكلمة التي بها نخاطب الظواهر الكونية فلا بد من وضع المعادلات الرياضية والقوانين الفيزيائية، وإذا كنّا لا نعرف الحكمة التي بها ينزل أو يحبس المطر فلا بد من البحث عن الوسيلة، وإذا كنّا لا نعرف الحكمة التي بها ينبت الزرع ويُكثّر فلا بد من اختراع المادة، ونحن في إطار هذا البحث نسمي تلك الوسيلة "السلطان" (لأسباب سيرد ذكرها لاحقاً)، ونخلص إلى القول بأنّ الإنسان يستخدم "السلطان" لعجزه عن الوصول إلى "الحكمة."

أما إذا ما عُدمت الحكمة وتعذّر كذلك استخدام السلطان كما هو الحال في الأمور الغيبية، فإنّ الإنسان يقف عندها عاجزاً تمام العجز لا يدري ما يفعل، وهنا يعود الإنسان إلى فطرته بالتسليم بالإيمان الغيبي، "والفطرة" هي ربط المادة بمصدرها الإيماني الاعتقادي.

يمكن تلخيص ما سبق على النحو التالي: إذا كنت تعرف العلاقة الحقيقية بين الكلمة ومعناها فإنّك تملك "الحكمة" التي بها تستطيع أنْ تنفذ ما تريد ودون الرجوع إلى أحد، أما إذا كنت لا تملك الحكمة فإنّك بحاجة إلى الوساطة وهي العلم المادي "السلطان"، وإذا ما تعذرت الحكمة وتعذّر السلطان فإنّك بحاجة إلى الفطرة السليمة، ولنضرب مثالا بسيطا لتوضيح ذلكً.

مثال: إذا كنت تعرف الحكمة (اللغة الحقيقية) التي باستخدامها تشفي المريض، فإنك تشفى المريض بها بالحال دون الرجوع إلى أحد ودون استخدام وسيلة. أما إذا كنت لا تملك تلك الحكمة فإنّك بحاجة إلى وسيلة "سلطان" كالطبيب الذي يستخدم الدواء لعلاج المريض، وإذا تعذرت الحكمة وتعذر السلطان كأن تكون مثلاً رجلاً عادياً في عرض البحر لا تملك الحكمة ولا تستطيع الوصول إلى الطبيب للحصول على العلاج "السلطان"، فإنّك ترجع إلى فطرتك فتلجأ إلى ربك بالدعاء ليشفي لك المريض بامتلاكه هو الحكمة "كن فيكون."

ولنطرح السؤال التالي: هل فعلاً يمكن أنْ تتحقق هذه الطرق الثلاث لنا نحن البشر وخصوصاً التوصل إلى الحكمة (أي التسميات الحقيقية للأشياء)؟ إنّ التاريخ الإنساني يشير إلى وجود تلك الاحتمالات الثلاث وهي:

1- حياة إنسانية امتلكت الحكمة واستطاعت تحقيق ما تريد في الحال.
2- حياة إنسانية لم تمتلك الحكمة ولم ولن تؤمن إلا بالوسيلة "السلطان."
3- حياة إنسانية لا تملك الحكمة وقد تملك السلطان ولكن لا تترك الفطرة الاعتقاد الإيماني بها.

ولنبدأ بالتساؤل الأكثر غرابة : هل حصل في تاريخ الحياة البشرية أنْ امتلك الإنسان الحكمة واستطاع تنفيذ ما يريد دون الرجوع إلى أحد؟ الجواب هو "نعم"، لقد حصل أنْ امتلك الإنسان تلك الحكمة، ونورد مثالين على ذلك: لقد عرفها مرة آدم عليه السلام. ولقد عرفها مرة أخرى عيسى بن مريم عليه السلام. ويثبت القرآن الكريم هاتين الحالتين في موقعين في القرآن الكريم، أولهما في الآية القرآنية التالية:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: 31]

وسنرى لاحقا أنّ النتيجة الحتمية لامتلاك آدم ذلك العلم أنْ كانت حياته رغدا، وخسارته لذلك العلم أن أصبحت حياته شقاءً وحرماناً. وثانيهما بقوله تعالى:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣﴾ [الزخرف: 63]

ولنقارن هذه الآية الكريمة بآيات أخرى في القرآن الكريم لنرى الفرق بين ما جاء به عيسى عليه السلام وما جاء به بقية الرسل:

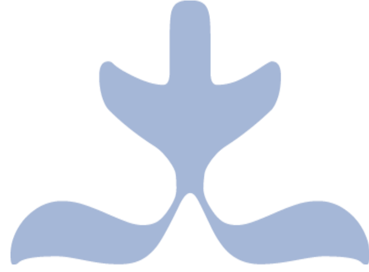
- ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣﴾ [الزخرف: 63]
- ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾ [التوبة: 70]
- ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩﴾ [إبراهيم: 9]
- ﴿۞وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٩٢﴾ [البقرة: 92]
- ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصف: 6]

فجميع الرسل، بما فيهم عيسى عليه السلام جاءوا بالبينات، ولكن عيسى (كما تشير آية الزخرف) جاء على وجه التخصيص بأكثر من ذلك وهي الحكمة، والهدف منها تبيان سبب الاختلاف، فما اختلف فيه الناس لا بد من وجود الحكمة التي تبين سبب ذلك الاختلاف، وهي بالتالي ما يمكّنه من تحقيق ما يريد بنفسه (أي ما درج الناس على تسميته بالمعجزات) أما النوع الثاني من الحياة البشرية فهي التي لم تمتلك الحكمة ولا تؤمن إلاّ بالوسيلة "السلطان"، وهذا هو الفكر الغربي المادي الذي لا يولج الإيمان الاعتقادي في العلم المادي .ولا نشعر أنّنا بحاجة لإثبات هذا النوع من الحياة البشرية ذلك لأنّها الأكثر سيطرة على العقل البشري منذ استخلاف الإنسان على الأرض وحتى يومنا هذا.

والنوع الثالث من الحياة البشرية فهي التي لا تمتلك الحكمة وقد تملك الوسيلة "السلطان" ولكنّها لا تترك الاعتقاد الإيماني بوجود الحكمة المسيرة لها، وهي كإيمان الرسل وأتباعهم، فإيمان موسى عليه السلام خير دليل على ذلك، فهو لم يكن يملك الحكمة التي امتلكها عيسى ولكنّه امتلك الوسيلة "العصا" وآمن بالقدرة الغيبية الموضوعة في تلك العصا.

- ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء: 153]
- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [هود: 96]
- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾ [غافر: 23]
- ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: 61-63]
- ﴿۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٩﴾﴾ [الدخان: 17-19]
- ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾﴾ [الذاريات: 38]

فهذه الآيات تثبت لموسى (كما لغيره من الرسل) حصوله على الآيات والبينات، ولكنها تخصّه بما لم يكن للكثيرين من الأنبياء السابقين وهو "السلطان."



أين حصلت مناداة

الله نبيه موسى



أين حصلت مناداة الله نبيه موسى؟

نتعرض في هذه المقالة إلى سؤال واحد وهو: أين حصلت المناداة الربانية لموسى؟

أي أين هو ذلك الواد المقدس الذي حصل به اللقاء الأول بين موسى وربه؟

جواب: نحن نزعم أن المتتبع للسياقات القرآنية التي تتحدث عن قصة اللقاء الشهير لموسى مع ربه ربما يستطيع أن يحدد بالدقة المنشودة المكان الذي تم فيه اللقاء، فهو بلا شك المكان الذي تتوافر به العناصر الجغرافية التالية:

أ. الواد

- ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ [طه: 9-12]

ب. الطور

- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩﴾ [القصص: 29]

ج. شاطئ الواد الأيمن

- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: 30]

د. البقعة المباركة

- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: 30]

هـ. الشجرة

- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: 30]

وتوافرت عوامل لحظية كالنار:

- ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ [النمل: 7-9]
- ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: 29-30]

نستنتج إذاً أن المناداة كانت : في الواد المقدس عند الشجرة في البقعة المباركة من الشجرة، أليس كذلك؟ فأين ذلك المكان جغرافياً على سطح الكرة الأرضية؟

لقد تحدثنا في مقالة أخرى عن موضوع الشجرة، وقد بيّنّا أن الحوار الإلهي مع البشر لم يحدث إلا مرتين، مرة مع آدم والأخرى مع موسى, وقد حصل ذلك عند الشجرة، وبينّا كذلك أن جنة آدم لم تكن في السماء وإنما على سطح الكرة الأرضية. (للمزيد عن هذا الموضوع بإمكانك عزيزي القارئ الرجوع إلى مقالتنا تحت عنوان: أين كانت جنة آدم؟)

افتراء من عند أنفسنا : نحن هنا نفتري الظن أن المكان الذي حصل فيه اللقاء الرباني مع موسى هو نفسه المكان الذي حصلت فيه فتنة الشيطان لآدم وزوجه، وهو نفسه الذي تمت فيه المخاطبة الربانية مع آدم. وسنحاول هنا تحديد المكان الذي تم فيه اللقاء (لقاء موسى مع ربه) بشيء من الدقة، فهناك إشارات قرآنية ربما نستطيع (على ركاكة منطقنا) من خلالها تحديد المكان الذي تم فيه اللقاء.

ولكننا قبل الولوج في هذا المبحث نجد لزاماً إعادة التأكيد على عقيدتنا الخاصة بالتواجد الإلهي الفيزيائي، فهناك من يسوغ المنطق الذي مفاده أن الله موجود في كل مكان، ولا يحاولون إقحام أنفسهم في الكيفية، لأن ذلك من باب العلم الغيبي الذي لا يجوز الخوض فيه.

أما نحن فإن عقيدتنا تقضي بضرورة التمييز (كما فعلنا في مقالة سابقة لنا) بين وجود الله في كل مكان بعلمه ووجود الله فيزيائياً في مكان معين، فللذين يظنون أن الله موجود فيزيائياً في كل مكان نسرد لهم المنطق التالي الذي نظن أنه ربما ينقض افتراضهم بالكلية، ألا وهو: لعلنا نعلم جميعاً أن الله قد واعد موسى أربعين ليلة، أليس كذلك؟

- ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٥١﴾ [البقرة: 51]

فتعجل موسى للقاء ربه، فذهب موسى إلى مكان معين للقاء ربه، بعد أن ترك قومه وراءه، بينما تعجل هو فوصل إلى ذلك المكان في الليلة الثلاثين، ولكن الله لم يلاقي موسى في تلك الليلة، فأتمها بعشر، فتم ميقات ربه أربعين ليلة؟

- ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: 142]

فسؤالنا الذي نطرحه على كل من ظن أن الله موجود في كل مكان بالمعنى الفيزيائي لكلمة الوجود هو : أليس الله موجود في كل مكان؟ فلم إذاً يضطر موسى للذهاب إلى مكان ما للقاء الله؟ ألا يمكن أن تتم الملاقاة في أي مكان؟

رأينا: كلا وألف كلا، إنّنا نظن أن في مجيء موسى إلى ربه (وليس العكس) ما يثبت صحة ما نقول ونزعم هنا، لقد تمت الملاقاة في مكان معين، فأين هو ذلك المكان؟

لاحظ - عزيزي القارئ- أن اللقاء الثاني لموسى مع ربه قد تم بعد خروج موسى مع قومه من أرض مصر، أليس كذلك؟ بينما تم اللقاء الأول عندما كان موسى عائداً إلى أرض مصر مع أهله من أرض مدين؟ افتراء من عند أنفسنا: نحن نعتقد أن لقاء موسى الأول مع ربه ولقاءه الثاني مع ربه حصلا في المكان نفسه.

الدليل: لو تأملنا النص القرآني الذي يتحدث عن لقاء موسى الثاني مع ربه لوجدنا أن موسى قد ذهب مسرعاً إلى ذلك المكان، في الوقت الذي لا نجد أن موسى قد أعطي معلومات حول المكان الذي سيجد عنده ربه، لنستنتج القول بأن موسى إذاً يعلم المكان الذي سيجد به ربه فذهب مسرعاً إلى ذلك المكان، وذلك لأنه المكان الذي وجد عنده ربه في لقاءه الأول وهو قافل العودة من مدين إلى أرض مصر بصحبة أهله: فالمكان إذاً يقع على الطريق بين مدين ومصر، ولكن أين هو ذلك المكان؟

خروج عن النص: قصة الإسراء وما يسمى بـ "المعراج" سيبادرنا صديقنا المعهود بالسؤال عن هذا الانتقال العجيب قائلاً : وما دخل قصة الإسراء بهذا الموضوع؟ فنرد بالقول أننا أمام لفتة غريبة في قصة الإسراء نظن أن الفكر الإسلامي قد مر عليها مرور الكرام، ولم يعطيها حقها من البحث، ونحن نعتقد جازمين أن ربط تلك الحادثة مع قصة لقاء موسى مع ربه ربما يفتح آفاقاً جديدة في الفهم، ولكن كيف؟

ففي تلك القصة (وغيرها بالطبع) يسهب الفكر الإسلامي في الحديث عن موضوع معين ويتجاوز مسرعاً عن مواضيع عديدة، وخصوصاً تلك التي تحتاج إلى التفكير العميق، فلقد أسهب الفكر الإسلامي في الحديث عن مرحلة معينة في قصة الإسراء و"المعراج"، وقفز عن مرحلة معينة، وعاود الحديث عن مرحلة ثالثة بشيء من التفصيل، وأخشى ما أخشاه أن الفكر الإسلامي – في مثل هذه التصرفات- ربما يقع كما وقع الفكر اليهودي

والمسيحي من قبل في محظور كبير حذّرنا الله منه في كتابه العزيز ألا وهو ما تتحدث عنه الآية الكريمة التالية، وهو أن نبدي ما نريد وأن نخفي ما نريد:

- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91]

موقفنا: إننا لا نضع أنفسنا في موقع الحامي لهذا الدين خوفاً من إثارة الشبهات حوله، فنطرح ما نريد ونتجاهل ما نظن أنه من الغيبيات التي لا يمكن للعامة الإطلاع عليه أو حتى إثارة النقاش حوله، بل على العكس تماما، إننا نؤمن أنّ هذا الدين (بكلياته وجزئياته) هو حق وملك للجميع، لذا فإننا نطرح على أنفسنا الأسئلة التي يمكن أن يطرحها أكثر الناس عداءً لهذا الدين، لأنّنا نومن إيماناً راسخاً بأنه ليس هناك في ديننا ما لا يجب أن يفتح ملفه، فجميع الملفات في ديننا مفتوحة للنقاش، لأننا نؤمن أنّ ما يصدر عن عزيز حكيم هو الحق بعينه، لذا يسهل تفسيره وإيصاله للناس شريطة أن يكون النقاش كله مبنيا على أساسيات العقيدة نفسها.

وهنا يعود صاحبنا بالقول أنك تتحدث عن ألغاز، الكلام غير مفهوم على الإطلاق، هذا هراء، نقول نعم هو كذلك، ولكن ألم يستوقفك - عزيزي القارئ- السؤال التالي في قصة الإسراء و"المعراج :"

أين الحديث عن المعراج في تلك القصة؟ فإذا ما قرأنا سورة الإسراء (لاحظ الاسم عزيزي القارئ) لا نجد على الإطلاق ذكر لقصة المعراج، فالسورة الكريمة تقص الحدث على النحو التالي:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء: 1-3]

وتستمر السورة في قص حكاية بني إسرائيل، ولكنها لا تذكر على الإطلاق شيئاً عن المعراج، فهل قدّم الفكر الإسلامي جواباً شافياً على هذا التساؤل؟ لِمَ تتحدث السورة بصريح اللفظ عن الرحلة من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى بصريح اللفظ بينما لا تذكر شيئاً عن المرحلة الثانية في الرحلة وهي التي رغبوا بتسميتها بـ "المعراج" إلى السموات العلى؟

لقد تحدث الفكر الإسلامي بإسهاب عن مرحلة الإسراء (المرحلة الأولى)، وأسهب عن الحديث فيما رأى النبي محمد علية الصلاة والسلام في معراجه (المرحلة الثالثة) ولكنه غفل (أو لربما تجنب) الحديث عن المرحلة الوسطى (وهي المعراج نفسه)، لا بل والغريب في الأمر أنهم يتناقلوا خبر أن النبي صلى الله عليه وسلم

قد صلى بجمع الأنبياء في المسجد الأقصى قبل معراجه، وهم أنفسهم لا يختلفوا أن الصلاة قد فرضت أصلاً بعد حادثة المعراج، فما نوع الصلاة التي صلاها النبي قبل معراجه؟

لندع هذا الحديث جانباً لأننا سنتعرض له بالتفصيل لاحقاً بحول الله وتوفيقه، ونعود إلى السؤال الرئيس : لم لا يذكر القرآن الكريم صراحة حدوث المعراج إلى السماء كما ذكر الانتقال من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؟ ثم لنطرح السؤال الأكبر الذي أظن أن الفكر الإسلامي السائد فشل في طرحه، وقدّم أجوبة هزيلة له يوم أن طرحه العامة من مثلي، والسؤال هو : لم يضطر النبي صلى الله عليه وسلم للذهاب إلى بيت المقدس ليعرج إلى السماء أصلاً؟ لم لا تتم الرحلة (express) إلى السموات العلى من هناك؟ إن أحسن الأجوبة الهزيلة التي طرحت حتى الساعة هي – برأينا- ظنهم ليتم الربط بين المكانين، فتتعزز مكانة المسجد الأقصى في الفكر الإسلامي.

السؤال: هل يا ترى يرضي مثل هذا الجواب حتى صاحبه؟ فهو على الأقل لا يرضيني بالرغم من سطحية تفكيري، فكيف به أن يرضى أصحاب تلك العقول العظيمة التي أقنعت العامة بمثل هذا الجواب على مدى قرون من الزمن؟! ووو...

كفاك فلسفة- يرد صاحبنا- ما الذي تنوي أن تقدّمه؟ ما علاقة هذا الأمر بموضوع المكان الذي حدث فيه اللقاء بين الإله وموسى؟

جواب: نحن نظن أننا نتحدث عن موضوع الانتقال في الحالتين: الانتقال من مكان إلى مكان لملاقاة رب السموات والأرض، فموسى يقفل عائداً إلى مصر من أرض مدين وفي الطريق يذهب إلى مكان جغرافي محدد فيجد الله عنده منادياً إياه في ذلك المكان:

- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: 30]

وتتكرر الحادثة فيتم الوعد الإلهي لموسى باللقاء بعد أربعين ليلة، فينتقل موسى من المكان الذي كان فيه مع بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر ليذهب إلى مكان ليلاقي ربه:

- ﴿۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: 142-143]

هذا بالنسبة لانتقال موسى لملاقاة ربه، أما بالنسبة للرسالة الخاتمة تحدث القصة المشهورة وهي ما تسمى بحادثة الإسراء و"المعراج" (وأرغب أنا بتسميتها بحادثة الإسراء فقط لأسباب سنبينها تالياً) فينتقل محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم من أرض البيت الحرام إلى بيت القدس (كما أظن) قبل عروجه إلى السماء (كما ظن كثير من أهل الدراية والرواية)، وهنا نعود لنطرح السؤال السابق نفسه :

لم هذا الانتقال؟ فإذا كان الله موجوداً في كل مكان - كما يظن الكثيرون - (بمعنى الوجود الفيزيائي) فما هي مسوغات هذا الانتقال؟ إن الجواب الذي نقدمه لهذا التساؤل يتمثل بالفهم البسيط التالي: قال تعالى عند الحديث عن حادثة المعراج:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1]

وقال تعالى عند الحديث عن اللقاء الإلهي لموسى:

- ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه: 9-12]
- ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ [النمل: 7-9]
- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: 29-30]
- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [النازعات: 15-16]

دقق النظر -عزيزي القارئ- بمفردات هذه الآيات متسلحاً بالإيمان والاعتقاد الجازم أن كلام الله يجب أن يؤخذ على محمل الجد، فهو دقيق مقصود بلفظه، فالإله يعي ما يقول، فلقد انتقل محمد في حادثة الإسراء

إلى المسجد الأقصى ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾، ونادى الله موسى قائلاً ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾، وتأكدت المباركة حين قال له إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى، وتحدد المكان في قوله ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِى ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، وتحدثنا (في سياق الحديث عن جنة آدم) عن الشجرة، فظننا أن التواصل الإلهي المباشر مع البشر حدث في المكان الذي توافرت فيه عناصر الجغرافيا نفسها.

الدليل: لو حاولنا البحث عن المكان الذي بارك الله حوله لوجدناه في موقعين اثنين، أولهما المكان الذي انتقل إليه نبينا محمد في حادثة الإسراء:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]

وثانيهما، المكان الذي تم فيه لقاء موسى ربه:

- ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسۡتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ [النمل: 7-9]

فالله سبحانه قد بارك المكان الذي حول المسجد الأقصى وبارك كذلك المكان الذي حول النار، وهو كذلك قد بارك المكان الأوسع:

- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِى ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: 30]

وكانت هي الأرض التي ورثها القوم الذين استضعفوا:

- ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعراف: 137]

وهي نفسها التي توجه إليها إبراهيم ولوط بعد ما لقوا من قومهم أصناف العذاب:

- ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: 71]

وهي نفسها التي كانت تجري فيها الرياح مسخرة لسليمان:

- ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: 81]

ولو دققنا عزيزي القارئ في مفردات هذه الآيات لوجدنا التحديد الجغرافي للمكان، فعندما يذكر الله سبحانه لفظة تلك الأرض تكون المباركة فيها:

- ﴿... مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ... ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: 137]
- ﴿... إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ... ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: 81]

ولعلنا نعلم جميعاً أن واحدة من معاني حرف الجر "في" هو داخل الشيء، فليست البركة للأرض كلها وإنما لجزء منها داخل تلك الأرض، ولا أظن أن الناس يختلفون في تحديد تلك الأرض التي يتحدث عنها النص القرآني، فهي الأرض التي تواجد فيها إبراهيم ولوط وسليمان وموسى، أليست هي إذاً أرض فلسطين؟

وإذا كنا قد علمنا تلك الأرض بشكل عام، فكيف نحدد المكان المبارك بشكل خاص؟

إننا نعتقد أن المكان الذي تمت المباركة حوله هو بالضبط ما ورد في معرض الحديث عن اللقاءات الشهيرة التي حصلت لموسى مع ربه، وهي مكان النار:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل: 8]

وهو المكان نفسه الذي بارك الله حوله في سياق الحديث عن حادثة الإسراء:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1]

نعم إنه مكان المسجد الأقصى الموجود حالياً في أرض القدس، فنحن نفتري الظن أنه هناك حدث لقاء موسى الأول بربه، وإلى هناك أسرع موسى وترك قومه خلفه ليلاقي ربه مرة أخرى، وإلى هناك أنتقل محمد في حادثة الإسراء ليعرج منها إلى السماء لملاقاة ربه، وهناك كان أصلاً وجود آدم الأول في الجنة، فتلك هي جنة آدم الأولى، ومن هناك هبط آدم وزوجه بعد المعصية، وهناك أنزل الله المن والسلوى على بني إسرائيل، ومن

هناك طلب الله منهم الهبوط إلى أرض مصر يوم أن طلبوا الثوم والبصل والعدس وغيرها، وتلك هي القرية نفسها التي طلب الله من بني إسرائيل أن يدخلوها ويقولوا حطة فتغفر لهم خطاياهم، وهناك حدث ميقات موسى مع سبعين من قومه لربه:

- ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأعراف: 155]

فأصبحت تلك هي الأرض المقدسة، ومن هنا أشتق أسمها "القدس". وسنرى لاحقاً أنه هناك حصلت ولادة المسيح عيسى بن مريم يوم أن انتبذت به (من دون قومهم) مكاناً قصيا:

- ﴿۞فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: 22-25]

إننا نود القول أن خط الاتصال المباشر من الأرض إلى السماء يجب أن يمر في تلك المحطة، فهي بلا شك محطة العبور الأرضية إلى السماء، لذا جاء في الفكر الإسلامي (وغيره) أنها أرض المحشر يوم القيامة، وطرحنا هذا ربما يفسر سبب أن تكون هذه الأرض هي أرض المحشر، فهي بوابة العبور إلى السماء.

ولا شك أن جميع شرائع الأرض تقدس تلك البقعة الجغرافية من الأرض في حين أن تلك الشرائع لم تتولد فيها، فهي ليست أرض مولد وشريعة موسى، وهي ليست أرض رسالة ابن مريم وهي ليست موطن رسالة محمد، ولكن جميع تلك الشرائع تقر بقدسية تلك البقعة من الأرض وتعتبرها أرضاً مباركة، ويأتي سؤالنا عن سر هذا التقديس وهذه العلاقة مع تلك البقعة من الأرض على وجه التحديد، فلِمَ يتقاتل عليها أتباع هذه الشرائع وهي ليست الموطن الأصلي لرسل تلك الشرائع؟

افتراء من عند أنفسنا : إننا نعتقد أن السبب هو ما قدمناه سابقاً في أن موضع المسجد الأقصى الحالي هو نقطة الانطلاق إلى السماء، فهي محطة الحوار مع السماء، وهي محطة العبور إلى السماء، فهي المحطة الأولى التي انتقل إليها آدم وزوجه للعيش في الجنة (فكانت هي جنة آدم)، وهي المحطة التي تحدث فيها موسى مباشرة مع ربه (فكانت هي ميعاد موسى مع ربه)، وهي المحطة التي انتقل إليها محمد في حادثة الإسراء للعبور إلى السماء (فكانت هي مكان ميعاده مع ربه في تلك الرحلة).

ولقد درج الفكر الإسلامي إلى القول أن تلك الرحلة من البيت الحرام (مكة) إلى المسجد الأقصى (القدس) حدثت على ظهر وسيلة التنقل وهي البراق (وهي وسيلة تنقل فائقة السرعة)، فإن صح ما يقولون، فما الداعي أن تتجه أولاً إلى بيت المقدس لتنتقل بعدها إلى السماء إذا كانت بتلك السرعة الهائلة؟

إن جوابنا هو أن وسيلة التنقل تلك (وغيرها) لا بد أن تمر في طريق مرسوم محدد تكون محطته الأرضية الأولى بيت المقدس، ولا ننسى كذلك أنّ جبريل كان مصاحباً للنبي محمد في تلك الرحلة، أليس كذلك؟

فما الداعي أن ينتقل جبريل هو أيضاً إلى تلك المحطة الأرضية؟

إننا نزعم أن جميع رحلات جبريل إلى الأرض تمت بتلك الطريقة : النزول إلى المحطة الأرضية الأولى (بيت المقدس) ثم الانتقال بعدها إلى أي مكان على سطح الأرض. إن بيت المقدس هو محطة السيطرة الأولى على هذه الأرض، فما ينزل من السماء وما يعرج فيها لا بد له من المرور بتلك المحطة، فهي محطة السيطرة الأولى على الأرض (وسنتعرض لهه الجزئية بالتفصيل لاحقاً بحول الله وتوفيقه).

ونعود لقصة موسى لنطرح سؤالاً آخر غريباً لكنه يلفت الانتباه، ألا وهو : عندما ذهب موسى ليستطلع خبر النار، ناداه ربه على النحو التالي:

- ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾ [طه: 12]

ويأتي سؤالنا على الفور على النحو التالي: لماذا طلب الله من موسى أن يخلع نعليه؟ ويأتي الجواب معللاً في الآية نفسها على نحو " إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى" ، فهل يا ترى من كان في ذلك الواد عليه خلع نعليه؟ ولماذا؟

قبل الإجابة على هذا السؤال لا بد من الاستدراك التالي : لقد حدث هذا في اللقاء الأول في طريق عودة موسى إلى أرض مصر، أليس كذلك؟ ونحن نريد أن نجلب انتباه القارئ إلى جزئية في هذا اللقاء وهو أن موسى كان حينئذ في "واد"، وعندما عاد موسى للقاء ربه في المرة الثانية كان موسى أيضاً في نفس الواد، والدليل على ذلك هو أنه عندما طلب موسى رؤية الذات الإلهية مباشرة، كان رد ربه أن ينظر إلى الجبل، فالمنطقة بجغرافيتها تتضح في اللقاءين، وعندما منّ الله على بعض بني إسرائيل نتق فوقهم الجبل:

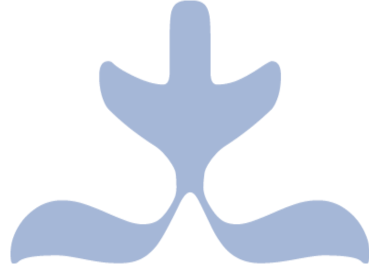
- ﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١﴾ [الأعراف: 171]

ورفع فوقهم الطور، والمتتبع لقصة الطور يستطيع أن يلمح على الفور توافر عناصر الجغرافيا في المكان الذي نتحدث عنه:

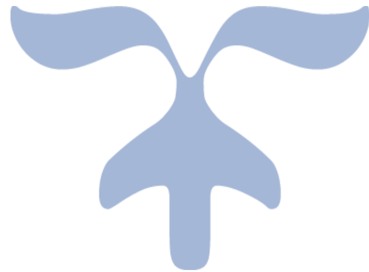
- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة: 63]
- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: 93]
- ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء: 154]
- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: 51-52]
- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ [طه: 80]
- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: 29-30]
- ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص: 46]
- ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ [الطور: 1-5]

(وسنتطرق لهذا الموضوع لاحقاً بحول الله وتوفيقه) ونعود لقصة النعلين طارحين السؤال السابق نفسه : لماذا طلب الله من موسى أن يخلع نعليه في اللقاء الأول؟

افتراء من عند أنفسنا: إنها – برأينا- قدسية المكان، فلقد كان موسى في مكان لا يدخله الناس بنعالهم، فهو المكان الذي منه تبدأ الرحلة إلى السماء، وهو المكان الذي يشكل المحطة الأرضية الأولى لمن ينزل من السماء إلى الأرض، ولا ننسى أن محمداً عليه أفضل الصلاة وأتم السلام قد قام من فراشه ليركب البراق في رحلته إلى المسجد الأقصى، فلا أظن أنه قد كان لابساً نعليه في تلك الرحلة.



أين كانت جنة آدم ؟



أين كانت جنة آدم؟

نتعرض في هذه المقالة إلى سؤال شغل الكثيرين على مر العصور يتعلق بمكان التواجد الإنساني الأول: فأين – يا ترى- أسكن الله آدم وزوجه بعد أن طلب من الملائكة السجود لآدم؟ وبكلمات أخرى، فإننا نطرح السؤال على النحو التالي: أين كانت جنة آدم وزوجه الأولى؟

افتراء من عند أنفسنا: سنحاول في هذا البحث تسويق ظننا بأن تلك الجنة كانت على الأرض وأن آدم وزوجه لم يسكنا جنة الخلد إطلاقاً. وسنحاول أن نحدد المنطقة الجغرافية التي سكنها آدم وزوجة قبل الوقوع في فتنة الشيطان والمنطقة الجغرافية التي انتقلا إليها بعد الوقوع في فتنة الشيطان.

المنهجية: تتلخص منهجيتنا بتتبع السياقات القرآنية التي نؤمن أنها تعرض القصة بشكل جلي ربما يصعب المجادلة فيه.

تمهيد: تغيّر اللغة

تجمع النظريات اللغوية الحديثة أنّ اللغة كائن متغير لا يبقى على حاله، وأنّ هذا التغير حتمي وذلك لأسباب عديدة، فيذكرون مثلاً حاجة المجتمعات المتغيرة، وبالتالي تكون اللغة متغيرة بتغير المجتمعات، وكذلك انقطاع أسباب الاتصال، فكلما كان المجتمع مغلقاً كلما ازدادت عوامل التغيير قوة، وهو ما أدى بالنهاية إلى تكون مجتمعات منعزلة ومفصولة عن بعضها البعض وبالتالي استقلال اللهجات وتطورها التاريخي إلى لغات مستقلة، وكان هناك عوامل تتعلق بالأشخاص أنفسهم، فرغبة الأشخاص بالاستقلال والتميز عن بعضهم البعض شجع ظهور القوميات والأعراق التي تحافظ على هويتها من خلال لغتها، وكان هناك أيضاً حاجة للتميز داخل المجتمع الواحد، فظهرت اللهجات التي تعكس عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية حتى داخل المجتمع الواحد.

فكان نتيجة الانعزال السياسي والجغرافي، أن ظهرت لغات مستقلة (Languages) ، وكان ثمرة التميز الطبقي ظهور ما يسمى(Sociolect) ، وثمرة التميز الجغرافي داخل المجتمع الواحد ظهور ما يسمى بـ (Dialect)، وثمرة التميز حتى على مستوى الشخص ما يسمى بـ(Idiolect) ، وكان هناك عوامل مؤثرة حتى داخل هذه التصنيفات كعوامل تتعلق بالجنس (أي لغة الذكور مقابل لغة الإناث)، وعوامل تتعلق بالمهنة (فأصحاب المهنة الواحدة لهم تميز لغوي) كلغة الحدادين والجزارين والصحفيين ولغة رجال الأعمال، الخ.
وهنا نخلص للقول أنّ جل ما تفعله هذه النظريات أنّها تقدم شرحاً لما يحصل في الواقع فلا تعدو قوتها أنْ تكون أكثر من وصفية (Descriptive) ، فهي لا تناقش السؤال الأكبر وهو: لِمَ حصل التغير في الأصل؟ لِمَ تكون اللغة متغيرة؟ لمَ لا تكون اللغة كما القوى الطبيعية الأخرى في الكون ثابتة لا تتغير؟

إنّ جميع النظريات اللغوية الحديثة تسلم بالحقيقة الماثلة وهي تغير اللغة، ولكنّها لا تبحث عن السبب الأساسي الذي أدى باللغة إلى التغير بالرغم أنّها كما ذكرنا سابقاً علماً أودعه الله واختص به بني البشر ممثلين بآدم عليه السلام؟ ولكن القرآن الكريم يبيّن بشكل لا لبس فيه السبب الحقيقي الذي أدى باللغة إلى التغير أصلاً. وسنناقش هذا الإدعاء بشيء من التفصيل الآن.

تغير اللغة من منظور قرآني كما نفهمه نحن. عندما أدرك الملائكة حكمة الله تعالى في استخلاف آدم على الأرض، وقدرة هذا المخلوق الجديد التي يستمدها من العلم الذي أوكله الله إياه، جاء الخطاب الرباني المباشر للملائكة بالسجود لآدم، قال تعالى:

- ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 33-34]

ومما لا شك فيه أنّ سجود الملائكة لآدم لم يكن بأي حال من الأحوال سجود عبادة، فالملائكة الذين مهمتهم في المقام الأول عبادة الله لا يمكن أنْ يطلب منهم عبادة غيره، فالسجود هنا يعني – كما نراه- إتباع الطريقة والمنهج، أي أنّ الملائكة قد طلب منهم الانصياع وراء لواء آدم (وهذا النوع من السجود قد تكرر في قصة يوسف مع إخوته)، فبعد أن رفع يوسف أبويه على العرش خروا له إخوته سجداً:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

وهذا مشابه تاماً للطلب الإلهي من الملائكة بأن يفعلوا مع آدم:

- ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر: 29]
- ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾ [ص: 72]

المهم الآن بالنسبة لنا هو الطلب الرباني من الملائكة جميعاً بالوقوع ساجدين لآدم، الأمر الذي نظن أنه أشعل فتيل الغيرة والحسد عند إبليس، فجاء رفضه معللاً بالقول:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: 12]

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: 61-62]
- ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: 76]

وسنتعرض لمعنى السجود الذي يتحدث عنه النص القرآني بشيء من التفصيل فيما بعد، لننتقل الآن إلى موضوع اختلاف الأمر الإلهي بخصوص سجود الملائكة وسجود إبليس، لماذا سجد الملائكة كلهم أجمعون ورفض إبليس السجود؟ وهنا لا بد من التوقف للحظة لتصحيح فكرة تعرضنا لجزئيتها عند الحديث عند قضية التسيير والتخيير تتعلق بالتساؤل التالي:

لماذا سجد الملائكة كلهم أجمعون فلم يتخلف منهم أحد بينما رفض إبليس على وجه الخصوص الأمر الإلهي بالسجود لآدم؟

فكما نعلم أنّه في حين أن الأمر الإلهي صدر للجميع بالسجود لآدم رفض إبليس فقط السجود لآدم، فلماذا لم يتخلف أحد من الملائكة عن السجود لآدم بينما رفض إبليس الانصياع لذاك الأمر الإلهي؟

الرأي السائد: قد يرد البعض بالقول لأنّ إبليس تكبّر واستعلى، وظنّ أنّه أعظم من أنْ يسجد لآدم، ولكننا نرد بالقول أنّ الملائكة كذلك جادلوا في الأمر ولم يكن سجودهم برغبة منهم، أليس كذلك؟ وندعو القارئ الكريم إلى التدبر في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: 69-76]

فلعل المتدبر لهذه الآيات الكريمات يدرك على الفور أنّ الخصومة دبت في الملإ الأعلى لحظة أنْ أخبر الله الملائكة بخلق "بَشَرًا مِّن طِينٍ"، فليس إبليس فقط من تلكأ عن السجود وإنما الملائكة كذلك ما تقبلوا الأمر طواعية، فالآيات القرآنية تتحدث عن حدوث خصومة في الملإ الأعلى، والخصومة – كما يعلم الجميع- لا يمكن أنْ يشترك بها طرف واحد فقط، فلابد من وجود أكثر من طرف حتى تصبح خصومة، فالملائكة أظهروا أنّ إرادتهم تتنافى مع الإرادة الإلهية لهم باستخلاف بشراً من طين ومن ثم السجود له.

افتراء من عند أنفسنا، لذا نحن نفتري الظن بأنّ السبب في تقبل الملائكة السجود لآدم في نهاية المطاف ليس لرغبة منهم في السجود وإنما امتثالاً لأمر ربهم لأنّ الأمر الإلهي نزل عليهم –كما ذكرنا سابقاً- من

باب القول، وقول الله لا محالة نافذ، أما إبليس فقد رفض السجود لأنّ الأمر الذي صدر له على وجه الخصوص –كما ذكرنا سابقاً- جاء من باب المشيئة، وبالتالي كان له حرية الاختيار، فآثر أنْ لا يسجد.

ولربما سأل البعض السؤال التالي: لماذا دبت الخصومة في الملإ الأعلى لحظة أن أخبرهم الله مشيئته بخلق بشراً من طين؟ جواب: لعل الجميع يدرك أنّ تلك الخصومة التي دبت في الملإ الأعلى لم تكن بسبب الأمر بالسجود بحد ذاته، وإنما بسبب القرار الإلهي باستخلاف آدم في الأرض، وقد يقول البعض وما الفرق؟ فنرد بالقول أنّ فهم هذه الجزئية ربما يحل إشكالية كبيرة في الفكر الإسلامي ألا وهي : لماذا تلكأ الملائكة بتقبل الأمر؟ ولماذا رفض إبليس السجود؟ ولماذا وسوس الشيطان لآدم في الجنة؟ إنها أسئلة مترابطة تتضح بشكل أكبر إنْ هي أفضت بعضها إلى بعض. وقبل الولوج في تفصيلات الأمر ندعو القارئ الكريم إلى تدبر الترتيب في الآيات القرآنية التالية:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 30-34]

لاحظ عزيزي القارئ أنّ المجادلة التي بادر بها الملائكة حصلت مباشرة بعد أنْ أخبرهم الله بقراره استخلاف بشراً من طين (الآية 30)، وجاء الطلب الإلهي من الملائكة بالسجود (الآية 34) بعد أنْ أقروا بقصور علمهم (الآيات 31-32)، فعلموا أنّ لله حكمة أكبر من تلك التي كانوا يظنون. إننا نفهم المشهد إذاً على النحو التالي: لقد سبق خلقُ الجان خلقَ الإنس:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: 26-27]

فلقد كان الجآن متواجدون قبل خلق آدم، ولكن أين؟ ولا شك أنّ الملائكة كانوا أيضاً متواجدين قبل خلق آدم بدليل الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لحظة النفخ في آدم واكتسابه الحياة:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: 28-29]

وهنا لا شك يثار السؤال نفسه: أين كان الملائكة متواجدون؟ ولا شك أيضاً أنّ الأرض كانت موجودة قبل خلق الملائكة كذلك:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 29-30]

لاحظ عزيزي القارئ كيف تترابط هذه الآيات مع بعضها البعض في السياقات القرآنية التي تتحدث عن خلافة آدم وسجود الملائكة وسجود إبليس. فهي تذكر أولاً أن الله قد خلق ما في الأرض جميعاً لنا (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)، ثم كان الاستواء الإلهي إلى السماء (ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ)، وجاء بعد ذلك القرار الإلهي باستخلاف آدم فيها (وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ).

فالصورة تكون على النحو التالي:يخلق الله ما في الأرض، يتم الاستواء إلى السماء، يسويهن سبع سموات، يكون الملائكة متواجدون في الملإ الأعلى، يخلق الجآن، وأخيراً يخلق آدم، فتحدث المخاصمة في الملإ الأعلى: فما الدافع الذي أشعل فتيل المخاصمة في الملأ الأعلى إذاً؟

رأينا: إننا نظن إنّ جميع المخلوقات التي كانت هناك ممثلين بالملائكة والجن كانوا يختصمون لسبب واحد: ألا وهو خلافة الأرض التي كانت معدة من ذي قبل لتكون هي موطن الخليفة، فكان الملائكة - بلا شك- يظنون أنهم هم الأحق بالخلافة في أرض الله:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

وهذا واضح جداً في الشطر الثاني من الآية الكريمة " قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ "، فلو لم يكن للملائكة رغبة بتلك الخلافة لكان يكفيهم القول " أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ " وكفى، ولكن جاء تعريضهم لأنفسهم في هذا الباب- كما نظن- من باب رغبتهم في الخلافة نفسها، فأردفوا حجتهم تلك برغبتهم هذه عندما تابعوا القول " وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ "، ويكأن الملائكة إذاً يتساءلون: ما لنا لا نكون نحن الخليفة؟

والجان كانت أيضاً تظن أنّها هي من ستخلف الله في أرضه؟ ولكن لمّا حصل هذا الخلاف تفاجأ الطرفان (الملائكة والجن) بأنّ الخلافة ليست من نصيب أي منهم، وإنما من حق مخلوق جديد، لذا أبدوا معارضتهم

المبطنة بالقول غير الصريح قاصدين المجادلة للحصول على تفسير لهذا القرار الرباني، فتقبل الملائكة التفسير الرباني " قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ "، فكان ردهم:

- ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة: 32]

ورفضه إبليس صراحة ومن ثم رفض الانصياع لتبعاته وهو "الأمر بالسجود"، فجاء في سورة الأعراف قوله تعالى:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: 12]

والملفت للنظر هو القرار الإلهي الذي صدر بعد رفض إبليس ألا وهو:

- ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: 13]

ويتكرر المشهد في سورة ص:

- ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص: 76]
- ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧﴾ [ص: 77]

وسؤالنا هو : لماذا كان القرار الإلهي على هذا النحو : الهبوط والخروج من المكان؟ أي لِمَ كان العقاب على شكل الهبوط والخروج؟ لِمَ لَم يحصل العقاب على شكل المسخ الذي حصل لبني إسرائيل مثلاً:

- ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠﴾ [المائدة: 60]

ولِمَ لم يكن العقاب على شكل الإلقاء في النار؟ أليس هو المكان الذي سيؤول إليه إبليس في نهاية المطاف؟ وهكذا.

افتراء من عند أنفسنا: أننا نؤمن أنّ العقاب الإلهي جاء عادلاً ولا شك، فعندما يقترف شخص جريمة القتل لا يعاقب بحد السرقة، وعندما يسرق لا يجلد كالذي وقع في الزنا وهكذا، لذا جاء العقاب الرباني لإبليس من جنس الذنب الذي اقترفه: لقد أنكر إبليس أحقية آدم وجنس آدم خلافة الأرض، مقراً بها لنفسه وجنسه لأفضليتهم في الخلق (كما ظن هو وادّعى)، فكان العقاب الرباني له بالطرد منها على شكل الهبوط والخروج

منها. ولكن قد يبادرنا البعض بالاستغراب قائلين : وما دخل ذلك بالأرض؟ فالخروج والهبوط كان من الجنة، أليس كذلك؟ فنرد بالقول أنّ هذا ينقلنا إلى إشكالية وجدلية كبيرة في الفكر الإسلامي ألا وهي: أين سكن آدم بعد سجود الملائكة له؟ وأين انتهى به الأمر بعد حصول المعصية؟ وأين كان إبليس قبل وقوعه في المعصية؟ وأين انتهى به الأمر بعد رفضه الأمر الإلهي بالسجود لآدم؟ أسئلة لا شك مترابطة أعيت المفكرين في إيجاد الجواب الذي لا يدحض بسهوله، فما تناقله الفكر الإسلامي حتى الساعة يمكن رده بكل يسر وسهوله، ولنبدأ بهذه الافتراضات تباعاً، محاولين التأطير لمنطق جديد في سرد قصة الخلق الأولى.

آدم لم يسكن جنة الخلد قط

أولاً، لقد ذهب جل الفكر الإسلامي إلى القول أنّ آدم قد سكن الجنة بعد حصول عملية السجود:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]

وظن الكثيرون أنّ تلك كانت جنة الخلد الذي سيعود إليها آدم وذريته بعد الحساب يوم القيامة، فنرد على من ظن ذلك أنّه بحاجة أنْ يكمل قراءة الآية نفسها:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]

وقد يتساءل البعض وما علاقة ذلك بموضوع السكن في الجنة؟ جواب: نقول للذين يظنون أن الله قد أسكن آدم جنة الخلد بعد أن أمر الملائكة بالسجود له نقول لهم لو تدبرتم الآية الكريمة بشيء من التفصيل لوجدتم أمراً ينافي الاعتقاد أنّ آدم وزوجته قد سكنا جنة الخلد، ألا وهو الأمر الإلهي الذي جاء لآدم وزوجته بعدم الأكل من الشجرة:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]

ثانيا، نحن نعرف من مجمل الفكر الإسلامي وبالأدلة القاطعة أنّ من أهم صفات الأكل في جنات الخلد أنه غير مقيد:

- ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: 33]

وسؤالنا هو : هل هناك في جنات الخلد أي نوع من الطعام (حتى وإن كان من شجرة ما) يحضر على الإنسان حتى الاقتراب منه؟

و نحن نعلم كذلك أنّ آدم عندما اقترب وزوجته من تلك الشجرة حدث له مكروهاً (فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا):

- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

وسؤالنا هو: هل الأكل من ثمر جنات الخلد يمكن أنْ يسبب مكروهاً؟

آدم يسكن الجنة على سبيل الدوام

ثالثاً، لقد جاء قول الله تعالى لآدم وزوجه عندما أسكنه وزوجه الجنة على النحو التالي:

- ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ١١٩﴾ [طه: 117-119]

إنّ المتدبر في هذا الكلام يدرك حقيقة صارخة وهي أنّ الله طلب من آدم عدم النزول عند رغبة إبليس لأنّ ذلك سيكلفه الخروج من الجنة، أليس كذلك؟ إنّ هذا الافتراض يعني أنّ الله قد أذن لآدم السكن في الجنة (جنات الخلد كما يظن البعض) على سبيل الدوام، فالله يحذر آدم من إبليس حتى لا يخرجه من جنات الخلد (فهذا منطقهم)، أليس كذلك؟ وهنا نثير التساؤل الكبير التالي :

كيف نفهم أنّ الله أمر آدم وزوجه السكن في جنات الخلد وحذرهم من إبليس وجنوده حتى لا يخرجهم من تلك الجنة والله نفسه هو من قضى بخلافة آدم الأرض حتى من قبل حصول الأمر برمته؟ وبكلمات أخرى فإنّ ما يشغل بالنا هو :

كيف يطلب الله من آدم وزوجه السكن في الجنة على سبيل الدوام ويحذرهم من إبليس خوفاً أنْ يكلفهم ذلك الخروج من الجنة وهو نفسه من خلق آدم وزوجه ليستخلفهم في الأرض؟ ألا يناقض الله نفسه (حاشاه جلّ وعلى) في هذا السياق؟ إنّ الفهم السابق الذي قدّمه لنا السادة العلماء يوصلنا بلا شك إلى هذا الموقف المتناقض :

الله يطلب من آدم وزوجه السكن في جنات الخلد ويحذرهم أنْ يخرجهم الشيطان من تلك الجنان، وهو قد سبق وأخبر الملائكة أنّ آدم وزوجه مستخلفين في الأرض.

آدم يسكن مكان يمكن أن يكون هناك مكان خير منه

رابعاً، لقد سوغ الشيطان لآدم وزوجه الأكل من الشجرة بالحجج التي ترد في السياق نفسه:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ [طه: 120]

فقد دخل الشيطان لآدم وزوجه من بابين اثنين : (1)أنّ الشجرة هي شجرة الخلد (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ) و (2) وأنّ ذلك سيكسب آدم ملك لا يبلى (وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ)، والمتدبر للسياقات القرآنية الأخرى يدرك أنّ إبليس سرد لآدم وزوجه السبب التالي الذي من أجله حرم الله عليهما الأكل من الشجرة قائلاً:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 20]

وما يهمنا في هذا المقام هو تقبل آدم لحجج الشيطان، فسؤالنا هو: لماذا تقبل آدم تلك الحجج؟ فلماذا يقبل آدم حجة الشيطان بأنّ الشجرة هي شجرة الخلد ما دام أنه يعيش هو وزوجه في جنات الخلد؟ كلا وألف كلا، إنّنا نظن أنّ آدم وزوجه تقبلا حجة الشيطان بأن تلك شجرة الخلد لأنهما لم يكونا يسكنا جنة الخلد أصلاً، وإلاّ لرد آدم حجة إبليس بالقول: "نحن في جنة الخلد، فما الذي نريد أكثر من ذلك؟" فما الذي سيطمع آدم في اكتسابه إنْ كان هو في جنة الخلد أصلاً؟ وكذلك نقول : لماذا تقبل آدم وزوجه حجة إبليس بأنهما سيحصلان على ملك لا يبلى إنْ كانا يقطنا جنة الخلد أصلا؟، فهل من تحصل له جنة الخلد سيبلى ملكه؟ وبالمنطق نفسه لماذا تقبل آدم من الشيطان الحجة أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ إذا كان آدم وزوجه أصلاً في جنة الخلد؟

كلا وألف كلا، لم يتقبل آدم تلك الحجج إلاّ لأنهم ما كانوا يقطنون جنة الخلد، وإنما هي جنة أخرى نحن بحاجة أنْ نبحث عنها لنعلم كيف هي حتى تقبل آدم منطق إبليس بأنه لازال هناك مكان أفضل من هذا المكان الذي يقطنه آدم وزوجه الآن بالرغم من التحذير الإلهي لهم من الوقوع في شرك الشيطان . فهل من سكن جنات الخلد يمكن أن يتمنى شيئاً لا يحصل عليه؟

كلا، إننا نؤمن أن جنات الخلد لا تبقى للإنسان رغبة لا تتحقق، أما الجنات الأخرى فقد يسكن الإنسان في نعيم كبير ولكن يبقى في نفسه ما لا يمكن أن يتحقق له، فها هو صاحب الجنتين (وليست جنة واحدة) يطمع ويقع في الذنب لحاجة في نفسه بلا شك:

- ﴿۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا
ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾ [الكهف: 32-33]

ولكنه يقع في المعصية فيكلفه ذلك خسارتهما

- ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ
لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا
مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا
٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ
إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ
كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾ [الكهف: 34-42]

وها هم أهل سبأ يتمتعون بالعيش بجنتين (وليست جنة واحدة)

- ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ
وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥﴾ [سبأ: 15]

ولكنهم يغرقوا في الضلالة فيخسروا ما كانوا فيه من النعيم:

- ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ
قَلِيلٖ ١٦﴾ [سبأ: 16]

وها هم أصحاب الجنة يمنعوا الفقراء من دخولها فتحترق:

- ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ
نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾ [القلم: 17-20]

وكذلك كان آدم (الأب الأول لهم جميعاً) يقطن الجنة ولكنه يقع في المعصية فيخسرها:

- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

وحتى نتبين ذلك المكان فعلينا أولا ربط القرار الإلهي بإستخلاف آدم وزوجه الأرض مع الأمر الإلهي لآدم وزوجه السكن في الجنة، وماهية الجنة نفسها، ومعنى الخلافة، وعملية الهبوط والخروج التي حصلت لإبليس أولاً ثم لقاطني الجنة جميعاً من بعده.

ماهية الجنة (جنة آدم أم جنة الخلد)

غالباً ما وردت الصيغة " جَنَّاتٌ ... خَالِدِينَ فِيهَا" في أكثر من مكان في كتاب الله للتدليل على المكان الذي سينتهي إليه المؤمنون بعد الحساب يوم القيامة، قال تعالى:

- ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ١٥﴾ [آل عمران: 15]
- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران: 136]
- ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ١٩٨﴾ [آل عمران: 198]
- ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٣﴾ [النساء: 13]
- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النساء: 57]
- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ١٢٢﴾ [النساء: 122]
- ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ٨٥﴾ [المائدة: 85]
- ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة: 119]

- ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٢﴾ [التوبة: 21-22]
- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٧٢﴾ [التوبة: 72]
- ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٨٩﴾ [التوبة: 89]
- ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [التوبة: 100]
- ﴿۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود: 108]
- ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۝٢٣﴾ [إبراهيم: 23]
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف: 107-108]
- ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ [طه: 76]
- ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ۝٧٥ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦﴾ [الفرقان: 75-76]
- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٥٨﴾ [العنكبوت: 58]
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ۝٨ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٩﴾ [لقمان: 8-9]
- ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [الأحقاف: 14]
- ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ [الفتح: 5]
- ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٢﴾ [الحديد: 12]
- ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي

مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ [المجادلة: 22]

- ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ [التغابن: 9]
- ﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴿١١﴾ [الطلاق: 11]
- ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ [البينة: 8]

وبعد هذا الاستعراض الطويل والمتكرر للآيات التي ترد فيها عبارة " جَنَّٰتٍ... خَٰلِدِينَ فِيهَا "، ألم تشعر عزيزي القارئ أني قد اقتبست آيات كثيرة كان الأولى بي أنْ أقدم لك آية أو آيتين وكفي فتصلك الفكرة دون هذا الجهد والإطالة؟ ولربما ظنّ البعض أننا لا نحتاج لهذا الكم الكبير من الآيات الكريمات لإثبات أنّ المؤمنين في جنات خالدين فيها، فإذا كان هذا الإدعاء صحيحاً، فلم لا ننتقد هذا التكرار الكثير جداً للفكرة والصيغة نفسها في كتاب الله؟ أي لم يخبرنا الله بأنّ المؤمنين في الجنات خالدين فيها في عشرات الآيات القرآنية؟ ألا تكفي آية أو آيتان لتصل لنا الفكرة؟ فهل نحن بحاجة لعشرات الآيات لترداد نفس الفكرة وإلى حد كبير بنفس الصيغ والتراكيب؟ وإذا كانت لفظة الجنة (كما يظن البعض) تدل أصلا على جنات الخلد، فلم ترد عبارة "خَالِدِينَ فِيهَا" تقريباً في كل مرة يصار إلى الحديث عن تلك الجنات؟ ألا تصبح تلك العبارة من باب التكرار غير المرغوب فيه؟ كلا وألف كلا، إنه المعنى الذي لا يمكن أن يتم بدونها، فتلك العبارة ضرورة لا يمكن تجاوزها لسبب بسيط –حسب ظننا- ألا وهو التفريق بين نوعين من الجنان في السياق القرآني:

(1)الجنات التي فيها خلود دائم فلا موت فيها، و(2) الجنات التي لا خلود فيها ونهايتها محتومة

وبهذا الفهم نستطيع أن ندرك كيف أوقع إبليس آدم في شركه عندما وسوس له بالقول:

- ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ [الأعراف: 20]
- ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ [طه: 120]

لقد صوّر إبليس لآدم أنّ الأكل من الشجرة سينقلهما من حالة إلى حالة أخرى: من حالة اللاخلود إلى حالة الخلود " أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ" ، فتلك الجنة التي يتواجد آدم وزوجه بها الآن لا خلود فيها بدليل تقبل آدم لفكرة الشيطان، ونحن نعتقد أنّ الشيطان لم يكن لينجح بالإيقاع بآدم وزوجه لولا معرفة آدم المسبقة بوجود شجرة الخلد التي عندما يأكل منها الشخص "يكون من الخالدين"، وبكلمات أخرى لقد كان يعلم آدم

بوجود شجرة الخلد ويعلم أنّ الأكل منها يسبب الخلود والملك الذي لا يبلى، (فهو يعرف بوجود نعيم وجنان غير تلك التي هو فيها الآن) وعندها اقتصرت مهمة إبليس بإقناع آدم (ليس بوجود شجرة الخلد وإنما) بأنّ الشجرة هذه هي شجرة الخلد التي يعلم مسبقاً وجودها. وحتى يتبين القارئ وجاهة ما نظن ندعوه إلى التفكر بالألفاظ التي وردت في الآيات التي فيها سوغ إبليس لآدم الأكل من الشجرة:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ١٢٠﴾ [طه: 120]

فإبليس يوسوس لآدم القول " شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ " بصيغة المعرفة بدلالة أل التعريف والإضافة ولم يقل له مثلاً "شجرة خلد" بأسلوب التنكير، ونحن نعرف أنّ استخدام ال التعريف للمرة الأولى في سياق الخطاب لا يمكن أن يتم دون اشتراك المتكلم والمخاطب بالمعرفة السابقة للاسم المعرّف (وهو ما يرغب بعض أهل اللغة بتسميته ال العهدية، أي اشتراك السامع والمخاطب بالمعرفة المسبقة للاسم المعرّف)، فأنت لن تتحدث مع شخص للمرة الأولى بالقول "جاء باص المدرسة" مثلاً دون أن يكون ذلك الشخص يعرف أي باص مدرسة أنت تقصد، وإلا لجاءك رده على نحو "أي باص تقصد؟ أو أي مدرسة تعني؟" ولكن عندما تكون تلك المعرفة مشتركة بين السامع والمتكلم يستمر الحديث دون الحاجة إلى زيادة في التوضيح أو الإيضاح، وهذا بالضبط ما حدث –كما نظن- في سياق الحديث الذي جرى بين الشيطان من جهة وآدم وزوجه من جهة أخرى، فلم يضطر الشيطان لزيادة التوضيح عن تلك الشجرة ولم يصدر عن آدم وزوجة أي استفسار عن ماهية تلك الشجرة، ونحن نظن أنّ السبب هو حصول العلم المسبق لدى آدم وزوجه بوجود مثل تلك الشجرة في مكان ما، فأدخل الشيطان في نفسيهما الشك أنّ هذه هي "شجرة الخلد التي يعلمون حقيقة وجودها، والسياق القرآني واضح إذا قراءنا ما جاء في سورة طه أولاً وأتبعنا ذلك بما جاء في الأعراف:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ١٢٠﴾ [طه: 120]
- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

فسهلت مهمة الشيطان في التغرير بهما، وهذا واضح جداً في السياق المحيط بآية الأعراف نفسها:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

فأدخل الشك في نفسيهما، وما كان يحتاج الشيطان سوى الإلحاح والتكرار لتأكيد فكرته وزيادة الشك الذي زرعه وبدأ ينمو ويكبر في نفسيهما وكان له ذلك:

- ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ [الأعراف: 21]

فكانت النتيجة التغرير بهم ووقوعهم في شركه:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]

وهنا نثير تساؤلاً كبيرا وهو : لماذا لم تتدخل الإرادة الإلهية وقت التغرير الذي حصل ولحظة وقوع الشك في نفسي آدم وزوجة؟

فنحن نعلم أنّ الله خاطب آدم قبل الوقوع في المعصية وحذره من الشيطان وعداوته بقوله سبحانه وتعالى:

- ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: 117]

وخاطبهما بعد الوقوع في المعصية بقوله تعالى:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]

وسؤالنا هو: لماذا لم تتدخل إرادة الله ومخاطبة آدم وزوجه لحظة الوقوع في المعصية (أو عندما همّا بالوقوع فيها)؟ أي لماذا لم يخاطب الله آدم وزوجه عندما وسوس لهما الشيطان أنّ تلك شجرة الخلد والأكل منها يجلب لهم ملكاً لا يبلى بالقول بما فحواه "أنّ تلك ليست شجرة الخلد والشيطان يكذبكما القول" لينجو آدم وزوجه من الوقوع في المعصية؟ فالله سبحانه تدخّل قبل وقوع المعصية بالتحذير من الوقوع فيها وتدخّل بعد الوقوع فيها بالمحاسبة ولكنه لم يتدخل عند الوقوع فيها: فلماذا؟

جواب: نحن نعتقد أن سنة الله قد قضت بأنه قد دلّنا على طريق النجاة وحذرنا من الوقوع في شرك الشيطان فأرسل لنا رسله وأنزل معهم شرعة ومنهاجا، وهو يحاسبنا على أعمالنا في نهاية المطاف ولكنه لا يتدخل فيما نقوم به ونفعل، وذلك لسبب بسيط أنّ ما نقوم به هو من باب مشيئة الله (وليس من باب قوله) كما كان حال الأكل الأول من الجنة:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]

فلو تدخل الله في وسوسة الشيطان لآدم وزوجه لأصبح الإله يناقض نفسه (حاشاه جل وعلى)، فهو قد قال لآدم وزوجه وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا، فما دام الأمر جاء من الله لآدم وزوجه بالأكل على المشيئة فيكون بذلك هو (الله) من ترك لهم حرية الاختيار في الأكل وعدمه، فكيف به يعود ليردهم عن ما شاءوا هم أن يأكلوه؟ لقد ترك الله الأكل من الجنة لمشيئة آدم وزوجه فما كان الله ليتدخل إذاً ليردهم عن مشيئتهم التي منحهم إياه في البدء.

الخلافة في الأرض والسكن في الجنة: تناقض أم توافق؟

إنّ التناقض الظاهر الذي يتبادر إلى ذهن القارئ للنصوص القرآنية التي تتحدث عن السكن في الجنة هو : كيف يقضي الله بخلافة آدم الأرض في البدء ثم يأتي الأمر الإلهي لآدم وزوجه السكن في الجنة ويحذرهم من مغبة النزول عند رغبة إبليس لأنّ ذلك سيكلفهم الخروج من الجنة؟ ولنبدأ بالافتراض الساذج التالي :

تصور معي – عزيزي القارئ- لو أنّ آدم لم ينزل عند رغبة الشيطان فلم يأكل هو وزوجه من الشجرة، فهل يعني ذلك أنّ آدم وزوجه وذريتهم من بعدهم سيبقون في الجنة وإلى الأبد؟ وأين سيذهب الوعد الإلهي باستخلاف آدم وزوجه وذريتهم من بعدهم الأرض؟ أي كيف ستتحقق الخلافة في الأرض عندئذ؟

لقد راوغ الفكر الإسلامي الدارج في ذلك بالقول أنّ الله عَلِم في سابق علمه أنّ آدم وزوجه سيأكلان لا محالة من الشجرة، وبالتالي سيصدر القرار الإلهي لهم –لا محالة- بالهبوط من الجنة فتتم الخلافة؟ فنرد بالقول: ألا ترى - عزيزي القارئ- أنّ تلك إذاً مسرحية جاهزة؟

لم يضطر الإله إسكان آدم وزوجه الجنة في البدء ليتم الأكل من الشجرة وتحصل عملية الهبوط إلى الأرض ما دام أنّ خلق آدم جاء أصلاً لخلافة الأرض؟ وبكلمات أخرى لم جاءت تلك الحلقة الوسطى (السكن في الجنة) بين خلق آدم وسجود الملائكة له وخلافته الأرض؟ فهل هناك مسوغ لتلك المرحلة الانتقالية (أي السكن في الجنة) في الفكر الإسلامي؟

فهل لازالت الأرض (على سبيل المثال) غير جاهزة للخلافة حتى اللحظة فوضع آدم في ذلك المكان "المستأجر" ريثما يتم تأثيث "شقة التمليك للعروسين آدم وزوجه" (كما يقول إخواننا المصريون) ؟ أم هل كان آدم وزوجه غير مؤهلين بعد للسكن في الأرض فهما لازال بحاجة لشيء من التدريب (أي البروفات باللسان الأعجمي) ليتم الزفاف إلى عش الزوجية؟ إنّ ذلك أبعد ما يمكن عن الحقيقة . فالله أعد الأرض وما فيها حتى قبل الاستواء إلى السماء:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾ [البقرة: 29]

فالأرض إذاً جاهزة للخلافة حتى قبل إبلاغ الملائكة قراره استخلاف بشراً في الأرض، وآدم وزوجه كانا جاهزين لعمارة الأرض بدليل أنّ الله قد علم آدم كل شيء ليعده لخلافة الأرض، قال تعالى:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 31-34]

هل كانت المعصية سبباً في الهبوط

إننا نظن أن الأغرب من كل ما سبق هو أنّ جل الفكر الإسلامي قد درج على الاعتقاد أنّ الأكل من الشجرة (أو الوقوع في العصية) هو سبب الخروج من الجنة، فهم يروجوا للفكرة "الهزلية" التالية: أنّ الله أسكن آدم الجنة ليختبره فيها، فلما فشل آدم في ذلك الاختبار قضى الله الأمر بهبوطه إلى الأرض! ألا ترى عزيزي القارئ التناقض بين هذا القول والإيمان بأنّ الله خلق آدم في الأصل لخلافة الأرض؟ فهل وقوع آدم وزوجه في المعصية أو عدم وقوعهم فيها كان سيؤثر على قرار الخلافة؟ وكذلك ألا ترى عزيزي القارئ أنّ الاعتقاد بأن إبليس هو من أخرج آدم من الجنة إلى الأرض ينافي الاعتقاد بأنّ الله هو أصلاً من قضى بخلافة آدم الجنة:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: 30-31]
- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

إننا نظن أنّ المعصية لم تكن السبب في خلافة آدم الأرض، وذلك لسبب غاية في البساطة وهو: أنّ الله قد قضى بخلافة آدم الأرض قبل أنْ يعلمه علم الأسماء ويأمر الملائكة بالسجود له، فما كان وقوع آدم في المعصية (أو عدم وقوعه فيها) سيغير شيئاً من أمر خلافته الأرض، ثم لنحتكم وإياكم إلى كتاب الله لنرى ما قضى الله من العقاب في مخالفة آدم لربه في أمر الأكل من الشجرة:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة: 35]

نعم، تلك هي عاقبة الأكل من الشجرة كما قضاها الله: فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ، ولو كان الأكل من الشجرة سيترتب عليه الخروج أو الهبوط أو الطرد لجاء القضاء الإلهي على نحو: "فتكونا من المخرجين"، "فتكونا من الهابطين"، "فتكونا من المطرودين"، ونحوه، والأهم من ذلك لِمَ يقضي الله بهبوط آدم وزوجه من الجنة ما دام أنه قد تقبّل توبتهما؟ فمادام أنّ توبة آدم قد قبلت:

- ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ [البقرة: 37]

لم يعد الهبوط مبررا.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إننا نظن أنّ أمر الهبوط لا علاقة له بالمعصية أو بالتوبة، فخلافة آدم الأرض هو أمر محسوم بغض النظر عما حصل قبل أو بعد الوقوع في المعصية.

هل كان سكن آدم في الجنة مرحلة انتقالية؟

للخروج من هذه التناقضات التي نظن أن جل الفكر الإسلامي الدارج قد وقع فيها في هذا المجال نقدم الافتراضات التالية ونتابعها لنرى أيها أجدر بالتبني:

أولاً، كان سكن آدم وزوجه في الجنة مرحلة انتقالية وكان وقوع آدم في المعصية سبباً في هبوطه

ثانياً، كان سكن آدم في الجنة على سبيل الدوام وكان وقوعه في المعصية سبباً في هبوطه

ثالثاً، كان سكن آدم في الجنة مرحلة انتقالية ولم يكن الأكل من الشجرة سبباً في هبوطه

رابعا، كان سكن أدم في الجنة على سبيل الدوام ولم يكن الأكل من الشجرة سبباً في هبوطه

ولما بيّنّا أنّ الأكل من الشجرة لم يكن سبباً في هبوط آدم وزوجه لأنّ الخلافة في الأرض كانت السبب في خلق آدم في الأصل ولأنّ عملية الهبوط قد تمت بعد قبول الله توبة آدم، فإنّ الافتراض الأول والثاني يخرجان من السباق، وتنحصر المنافسة بين الافتراض الثالث والرابع حيث الأكل من الشجرة لم يكن السبب

في الهبوط، ولكن الفرق هنا يكمن في إن كان الأمر الإلهي لآدم وزوجه السكن في الجنة على سبيل الدوام أم هو فترة انتقالية يتم بعدها الانتقال إلى الأرض للخلافة.

إننا نزعم الظن أنّ الافتراض الرابع هو الأجدر بالتبني، (في حين أننا سنناقش الافتراض الثالث لاحقاً)، وبكلمات بسيطة نقول أنّ الله أصدر أمره لآدم وزوجه السكن في الجنة على سبيل الدوام ولم يكن الأكل من الشجرة سبباً في الهبوط، وقد يسبقنا البعض بالتساؤل التالي: إذا كان ما تقول صحيحاً، أي أنّ الله أمر آدم بالسكن في الجنة على سبيل الدوام فكيف إذاً ستتحقق الخلافة في الأرض؟

كيف سينتقل آدم إلى الأرض للخلافة ما دام أنّ الله قد قضى بسكن آدم في الجنة على سبيل الدوام؟ أليس هذا هو التناقض بعينة؟ نقول كلا، إنّ ذلك لا يناقض بعضه بعضاً شريطة القيام بشيئين اثنين: أولهما فهم معنى الهبوط الذي يتحدث عنه النص القرآني وفهم معنى الجنة التي وردت في سياق الحديث عن سكن آدم وزوجه، وثانيهما ربط الأحداث بعضها ببعض.

افتراءات من عند أنفسنا، نلخص الفكرة التي نجهد أنفسنا الوصول إليها على النحو التالي:

(1) حصل انتقال آدم وزوجه إلى الأرض قبل وقوع المعصية لتحقيق الخلافة التي قضى الله أمره في البدء،
(2) سكن آدم وزوجه الجنة على الأرض، فلقد ذكرنا آنفاً أنّ الجنة التي كان يسكنها آدم وزوجه ليست جنة الخلد، فالنص القرآني بصراحة اللفظ يبيّن أنّ آدم كان يسكن "الجنة" والله أمره "بالهبوط منها"، فما هي الجنة؟ وما هو الهبوط؟
(3) استطاع إبليس أن يخرج آدم من تلك الجنة التي كان يسكنها على الأرض، ولم يكن إبليس السبب في انتقال آدم وزوجه إلى الأرض، فانتقال آدم إلى الأرض كان بقرار رباني لتحقيق أمر الخلافة، أما خروج آدم من الجنة فقد كان بسبب الشيطان

وسنتعرض بالتفصيل لهذه الافتراءات بالتفصيل في الحال

الجنة ومعنى الخلافة

قال تعالى:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]

- ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: 117-119]

إن المتدبر لهذه الآيات الكريمة يجد ما يلي: أنّ الله أسكن آدم في الجنة، وطلب منهما الأكل منها على سبيل المشيئة وقد حاولنا أن نبين أنّ المشيئة تقتضي الاختيار وبالتالي جاء الأمر لهما بعدم الاقتراب من الشجرة، فاختار آدم الاقتراب منها :

- ✓ أنّ الله حذر آدم وزوجه من الشيطان حتى لا يخرجهما من الجنة، فإرادة الله كانت تقضي سكن آدم في الجنة وإلى الأبد، ولكن كيف ستتم الخلافة؟
- ✓ إنّ تلك الجنة مؤهلة لحياة لا جوع ولا عري ولا ضمأ ولا ضحى فيها

وعند الأخذ بعين الاعتبار مواصفات تلك الجنة، ندعو القارئ إلى تدبر الآية القرآنية التالية لنرى ما حصل فعلاً لآدم وزوجه لحظة الأكل من الشجرة:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: 36]

وهذا يعني أنّ الشيطان قد أخرج آدم وزوجه مما كانا فيه (بصيغة التذكير وليس التأنيث)، فما الذي كان آدم وزوجه فيه (وليس فيها)؟ إننا نعتقد أنه الوضع (أو الحال) الذي كانا فيه، ألا وهو الحياة الرغد،، فلم تعد الجنة المكان الذي لا جوع ولا عري ولا ضمأ ولا ضحى فيه، وصدر الأمر الإلهي لآدم وزوجه لا بل وللجميع الذين كانوا متواجدين في الجنة بالهبوط:

- ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: 24]

وقد بينا سابقاً أن ذلك شمل أيضاً الجن الذين كانوا متواجدين في الجنة آنذاك، حيث الشيطان الذي وسوس لآدم فيها، وتحصلت العداوة بين الجنسين منذ ذلك الوقت

- ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: 123]

والسؤال الذي نثيره هنا هو: كيف حصل الهبوط ؟ةكيف حصل الهبوط ؟ لقد جاء الأمر الإلهي لإبليس على النحو التالي:

- ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: 13]
- ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾ [الأعراف: 18]

وجاء الأمر الإلهي للجميع على النحو التالي:

- ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤﴾ [الأعراف: 24]
- ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: 123]

والمدقق في ألفاظ القرآن الكريم يجد أنّ الأمر الإلهي لإبليس جاء بصيغتين وهما "فاهبط" "واخرج"، وجاء الأمر الإلهي للبقية بصيغة واحدة وهي "اهبطوا" و "اهبطا". وبكلمات أخرى، لقد أمر الله إبليس بالهبوط والخروج وأمر الجميع بالهبوط فقط، ولا أظن أنّ ذلك جاء من قبيل المصادفة وتبديل الألفاظ، لذا فإننا ندعو القارئ الكريم إلى متابعة الألفاظ لتبيان الاختلاف بحول الله وتوفيقه.

أولاً: الخروج

ما هو الخروج؟ أو كيف يتم الخروج؟ إنّ من أبسط معاني الخروج هو الانتقال من الداخل إلى الخارج، ومصداق ذلك قوله تعالى:

- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11]
- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾ [القصص: 79]
- ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢﴾ [النمل: 12]

وكذلك فهي تعني التفلت من حدود مكان ما:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ [البقرة: 246]

- ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: 195]
- ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: 66]
- ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: 75]
- ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾﴾ [الشعراء: 53-58]

ويحتمل الخروج كذلك من الباطن إلى الظاهر: من باطن الأرض إلى ظاهرها، مثلاً:

- ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: 22]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: 267]
- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: 93]
- ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: 78]
- ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: 88]

ويكون بذلك الخروج في مجمله أفقياً كما في الشكل التالي:

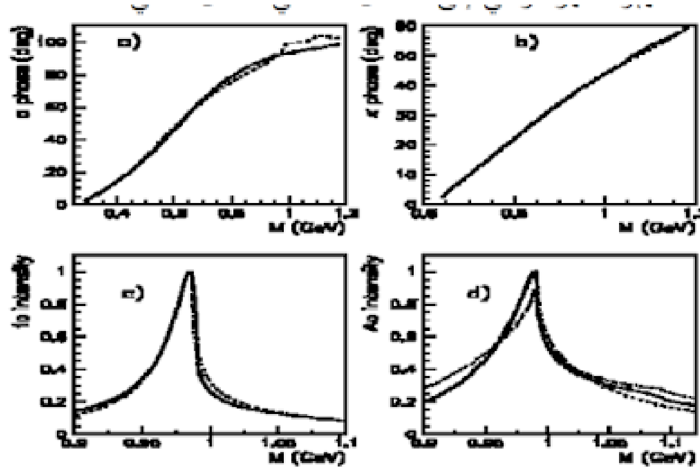


أو عمودياً إلى الأعلى كما في الشكل التالي:



ثانياً: الهبوط

ما هو الهبوط؟ وكيف يتم الهبوط؟ أما الهبوط فهو قوسي إلى الأسفل كما في الشكل التالي:



Source:

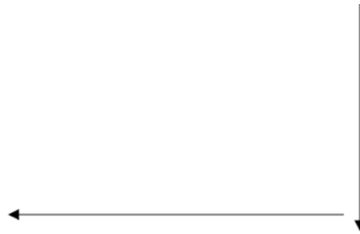
ومصداق ذلك ما جاء عن هبوط من كان مع نوح من السفينة:

- ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود: 48]

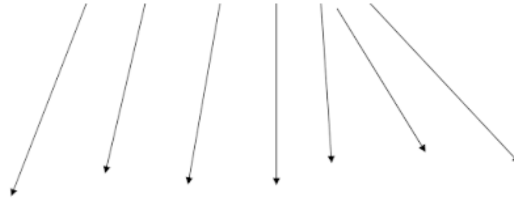
وكذلك هبوط بني إسرائيل من الأرض المقدسة إلى مصر:

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: 61]

نتيجة مفتراة: إن مراد القول هو أنه في حالتي الخروج والهبوط هناك انتقال، ولكن ما يهمنا هو طريقة واتجاه الانتقال، فإبليس أُمر بالحركة إلى الأسفل (الهبوط) ولكنه أُمر أيضاً بالانتقال أفقياً (الخروج)، فتكون حركته على النحو التالي:



بينما أمر جميع سكان الجنة (بمن فيهم آدم وزوجه بالهبوط فقط فكانت حركتهم عامودية قوسية فقط كما في الشكل التالي:



وهكذا يكون إبليس قد خرج من حدود المكان الذي يتواجد به من هبط من سكان الجنة. وبكلمات أدق، فنحن نفتري الظن أن إبليس قد (1) هبط من الجنة و (2) خرج منها، والجديد فيما نظن ونزعم أننا إذا استطعنا أن نثبت أنّ تلك الجنة التي كان يسكنها آدم وزوجه لم تكن في السماء وإنما على الأرض يكون آدم وزوجه قد انتقلا من مكان إلى مكان آخر على الأرض، بينما يكون إبليس قد خرج منها بعد أن انتقل، وبهذا نصل إلى افتراء خطير جداً له تبعاته الجمّة التي سنتعرض لها لاحقاً بحول الله وتوفيقه.

الافتراء الجديد :إنّ إبليس لم يعد موجوداً على الأرض، فهو قد هبط من المكان الذي كان يتواجد فيه وهو قد خرج منه كلياً، وبهذا يتنافي – في زعمنا- تلاقي إبليس مع سكان الأرض، فلا يوجد اتصال بينه وبين البشر بعد خروجه منها. ولكن التواصل يبقى قائماً بين الذين هبطوا ولم يؤمروا بالخروج وهم الجن والأنس.

الدليل لو تدبرنا جميع السياقات القرآنية التي تتحدث عن التواصل بين الجنسين يكون الحديث دائماً عن الجن بعفاريتهم وشياطينهم:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام: 112]
- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]
- ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: 12-14]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ [فصلت: 29]
- ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾ [الأحقاف: 29]
- ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ٧ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١﴾ [الجن: 1-11]
- ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [البقرة: 14]
- ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ

يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾ [البقرة: 102]

- ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنعام: 71]
- ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام: 121]
- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]
- ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٠﴾ [الأعراف: 30]
- ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾ [الأنعام: 27]
- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ٦٨﴾ [مريم: 68]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣﴾ [مريم: 83]
- ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾ [الأنبياء: 81-82]
- ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾ [المؤمنون: 97-98]
- ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ٢٢٣﴾ [الشعراء: 221-223]
- ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨﴾ [ص: 36-38]

وهذا الطرح ربما يقودنا إلى السؤال الكبير هو: هل حقاً أنّ آدم لم يهبط من السماء إلى الأرض بعد المعصية؟ نقول نعم آدم لم يهبط من السماء إلى الأرض ولكنه هبط من أرض إلى أرض.

الدليل: أفعال الحركة (الانتقال) في القرآن الكريم، حتى نستجلي الصورة علينا أنْ نمعن النظر بأفعال الحركة التي وردت في القرآن الكريم، ففعل الهبوط يدل على حركة، وفعل الخروج يدل على حركة، وهناك فعل

ثالث يهمنا في هذا المقام ويدل على الحركة كذلك وهو فعل النزول، فالقرآن الكريم يتحدث في مواطن عديدة عن الهبوط والخروج والنزول، وقد استعرضنا سابقاً بعض السياقات القرآنية التي تحدثت عن الخروج وبعض السياقات التي تحدثت عن الهبوط، ونحن الآن بحاجة إلى مقارنة تلك السياقات بالسياقات القرآنية التي تتحدث عن النزول. رأينا: إن جل القول الذي نريد توضيحه هنا هو أنّ الحركة من السماء إلى الأرض تتطلب حركة النزول (أي حركة على شكل النزول) وليس الخروج أو الهبوط.

الدليل: **أولاً**، لو تدبرنا آيات القرآن الكريم جميعاً لوجدنا أن الرسالة الدينية وكتب الله المصاحبة للرسالة قد نزلت نزولاً (ولم تهبط) من السماء، قال تعالى:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ [البقرة: 4]
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾ [البقرة: 176]
- ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾ [البقرة: 185]
- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾ [آل عمران: 65]
- ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة: 67]
- ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [الأنعام: 7]

ثانياً، انظر إلى الآيات التي تصور كيف ينزل الماء من السماء نزولاً:

- ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: 22]

ثالثاً، يصور القرآن الكريم حركة الملائكة (بمن فيهم الروح الأمين جبريل) على أنها حركة نزول (وليس خروج أو هبوط):

- ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٩٧﴾ [البقرة: 97]

- ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤﴾ [آل عمران: 124]
- ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ [الأنعام: 8]
- ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥﴾ [الإسراء: 95]
- ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥﴾ [الفرقان: 25]

رابعاً: وحتى المن والسلوى التي كانت من نصيب بني إسرائيل مع نبيهم موسى والمائدة التي ذكرت في قصة الحواريين مع نبيهم ابن مريم نزلت نزولاً:

- ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 57]
- ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ [المائدة: 112-115]

خامساً، وكذلك النصر والعذاب من ربك ينزل من السماء:

- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩﴾ [البقرة: 59]
- ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفال: 26]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [غافر: 13]

سادساً، وحتى الأشياء المادية التي مصدرها السماء (كالميزان والحديد) نزلت نزولا (ولم تخرج أو تهبط):

- ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد: 25]

ولننظر إلى الدقة والروعة القرآنية التي تصور الشياطين في حركة النزول، قال تعالى:

- ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: 221-223]

فلعل الجميع يدرك أنّ النص القرآني يتحدث عن أولئك الشياطين الذي يلقون السمع لما يحدث في السماء كما تؤكده الآيات التالية:

- ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: 8-9]

فيكون بذلك في مكان قريب من السماء (كالماء الذي ينزل من السحب) وعندما يتجهوا نحو الأرض تكون الحركة على هيئة النزول، فلبّ القول إذاً أنّ الحركة بين السماء والأرض هي حركة نزول (وليس هبوطا أو خروج) مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: 12]

وأخيرا، أنظر – عزيزي القارئ- إلى القول الفصل كيف تصور الآيات الكريمة التالية الحركة من وإلى السماء ومن وإلى الأرض، قال تعالى:

- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ: 2]
- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: 4]

فهاتان الآيتان تحددان شكل الحركة من وإلى الأرض ومن وإلى السماء: فالحركة من السماء باتجاه الأرض هي نزول، والحركة من الأرض باتجاه السماء هي خروج، فالزرع الذي ينبت من الأرض يكون في هيئة الخروج. أما الحركة إلى داخل السماء فهي العروج، فنحن نعرف مثلاً أنّ المعراج (الذي تحدث أهل العلم أنه حصل للنبي محمد) كان حركة إلى داخل السماء، وهكذا. والحركة إلى داخل الأرض فهي الولوج.. ونصل إلى ذروة مرادنا وهو التساؤل التالي: ما معنى أنّ الله أمر إبليس (على وجه التحديد) بالهبوط والخروج بينما أمر من تبقى في الجنة بالهبوط فقط؟

جواب: إذا سلّمنا أنّ الهبوط هو حركة ليست من السماء إلى الأرض وإنّما من الأرض إلى الأرض، وأن الخروج هو ليس حركة من السماء إلى خارجها وإنما من الأرض إلى خارجها، وأن الحركة من السماء باتجاه الأرض هي حركة نزول، فيكون التصور على النحو التالي:

لقد أصدر الله أمره لإبليس بالانتقال على هيئة الهبوط كما طلب من كل من تبقى في الجنة بالهبوط أيضاً فانتقلوا من مكان على الأرض إلى مكان آخر على الأرض، ولكنّ الله أصدر أمرا آخر لإبليس على وجه الخصوص بالخروج منها، والخروج من الأرض يتطلب ليس الدخول في باطنها (لأن ذلك إيلاج وليس خروج) ولكن الخروج من الأرض يعني الانتقال إلى أعلى كما في حالة الزرع، أو انتقالا أفقياً، وبكلتا الحالتين تكون النتيجة الخروج منها، فلو طلبت من شخص على وجه الكرة الأرضية بالخروج من الأرض، فأين يا ترى ستكون حركته؟

ولا تنسى - عزيزي القارئ- أنّ الأرض كروية الشكل تدور في فلك فأي حركة من الأرض إلى ذلك الفلك يعنى حركة إلى الأعلى باتجاه السماء، فالذي يتواجد في الهند أو في أمريكيا أو في القطب الشمالي أو الجنوبي إن أراد الخروج من الأرض نحو الفلك الخارجي سينظر إلى الأعلى فكل الاتجاهات من الأرض نحو السماء هي حركة خروج إلى الأعلى، وبذلك يكون إبليس قد خرج من الأرض نحو الأعلى وهو وذريته يتنقلون بين السماء والأرض وبذلك يستطيعون حتى تلقي السمع:

- ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨﴾ [الجن: 8]
- ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩﴾ [الجن: 9]

وسؤالنا هو كيف يستطيع الجن (وخصوصاً الشياطين) لمس السماء والاستماع إلى الملإ الأعلى؟ جواب: لأنهم أُخرجوا من الأرض، فالمكان الوحيد الذي يتاح لهم التواجد فيه هو بين السماء والأرض. فالله هو رب السموات والأرض وما بينهما:

- ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: 65]

ما علاقة ذلك كله بقصة سكن آدم وهبوطه من الجنة؟

جواب: لا يتحدث النص القرآني عن الحركة من السماء إلى الأرض إلا بفعل النزول، لذا فإننا نعتقد أنه لو كان آدم وزوجه يقطنان جنة السماء وجاء لهم الأمر بالحركة إلى الأرض لجاء الأمر الإلهي لهم بالنزول وليس بالهبوط، ولجاء الأمر الإلهي لإبليس بالنزول كذلك، ولكن الأمر بالهبوط يعني الانتقال من الأرض إلى الأرض، وقد يقول قائل: وكيف يكون الهبوط من الأرض إلى الأرض؟ فنرد بالقول لنتدبر السياقات القرآنية التالية:

فعندما ضجر بنو إسرائيل من طعام واحد، جاء الرد الإلهي لهم بالانتقال على صيغة " اهْبِطُوا:"

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: 61]

وعندما انتهى طوفان نوح، وهو في الفلك التي تجري على ماء على سطح الأرض، جاء القول الإلهي على نحو:

- ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: 48]

ولا ننسى أنّ نوحاً انطلق من مكان (فإذا فار التنور) وهبط في مكان آخر (واستوت على الجودي) ثم كيف يمكن أن يتم هبوط الحجارة من خشية الله؟ فهل تنزل من السماء إلى الأرض أم من الأرض إلى الأرض؟

- ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: 74]

فالهبوط هو انتقال من مكان على سطح الأرض إلى مكان آخر على سطح الأرض، فإن تخيلت عزيزي القارئ كروية الأرض وتخيلت نفسك في أي نقطة، فإن الانتقال من نقطة إلى أخرى هي عملية هبوط (أي حركة محدبة (على شكل قوس)، والهبوط على سطح الأرض يتم من مكان مرتفع إلى مكان آخر أقل ارتفاعاً، فهبوط نوح بسفينته يعني انتقال من مكان مرتفع بعض الشيء إلى مكان آخر أقل ارتفاعاً، وعندما نقول بالعربية هبطت الطائرة فإنّ ذلك يعني الانتقال من أعلى إلى أسفل على سطح الأرض نفسها، وعندما تهبط المركبة الفضائية على سطح القمر أو أي جرم سماوي فهي تنتقل من أعلى إلى أسفل حتى وإن بدا لنا أننا نرسلها إلى أعلى. فهي ترتفع إلى أعلى لأنها خرجت من الأرض ولكنها تتجه إلى أسفل لأنها تهبط على كوكب آخر.

وهنا لا بد من إثارة تساؤل آخر يخص انتقال آدم وزوجه من الجنة وهو وجهة الانتقال (destination)، فالله سبحانه عندما أمر آدم وزوجه بالهبوط أمرهم بالانتقال إلى الأرض:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: 36]

معنى مفردة " ٱلۡأَرۡضِ " في السياقات القرآنية، نحن نزعم الظن أن هناك لبس كبير في الفهم العام (وربما عند أهل العلم) عن معنى مفردة الأرض نفسها، فظن الكثيرون أن الأرض هي الكرة الأرضية بأكملها، لذا كان ظنهم على نحو أن الله عندما أمر آدم بالهبوط والاستقرار في الأرض أمره بالانتقال من مكان ما (غير الأرض) إلى مكان آخر (وهو الأرض التي نعرف) .

وبذلك يكون الانتقال من مكان غير الكرة الأرضية إلى مكان على الكرة الأرضية، وهذا ما نظن أنه كان سبباً رئيسياً في إعاقة الفهم الصحيح، لذا سنحاول في الصفحات التالية التعرض لهذه الجزئية، محاولين البحث عن المعنى الحقيقي لمفردة الأرض كما ترد في سياقات الكتاب الكريم.

السؤال: ما معنى مفردة الأرض؟

افتراء 1: لابد أولا من التأكيد على أن كلمة الأرض لا تعني في كل السياقات القرآنية جميعها الكرة الأرضية، وإنما اليابسة فقط، ومصداق ذلك قوله تعالى:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة: 61]

فالسياق القرآني يشير إلى أن الأرض تنبت، فهل يحدث ذلك في المحيطات والبحار والأنهار؟ ويمكن للأرض أن تثيرها البقر:

- ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾ [البقرة: 71]

فهل يمكن للبقر أن يثير المحيطات والبحار والأنهار؟ والأرض يمكن أن تموت وتحيا، ويتم ذلك بنزول الماء عليها:

- ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: 164]

وسنتحدث عن هذه الجزئية بتفصيل أكثر في مقالات قادمة بحول الله وتوفيقه

افتراء 2: لمّا كانت الأرض – في ظننا- لا تعني الكرة الأرضية وإنما اليابسة منها، بحثنا أكثر في السياقات القرآنية، فوجدنا أن هناك سياقات قرآنية عديدة تشير بشكل لا لُبس فيه أن مفردة الأرض لا تعني كل اليابسة، وإليك عزيزي القارئ بعض الأدلة على صحة هذا الافتراء الذي هو بلا شك من عند أنفسنا:

أولاً، فهذا يوسف مثلاً يطلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 55]

فهل كان يوسف يتولى خزائن الأرض كلها أم فقط خزائن مصر؟

ثانياً، وهذا أحد إخوة يوسف (وهو كبيرهم) يقسم أن لا يبرح الأرض، قال تعالى:

- ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠﴾ [يوسف: 80]

فهل رفض كبير إخوة يوسف أن يبرح الأرض كلها أم المكان الذي يتواجد فيه وهي أرض مصر؟

ثالثاً، قال تعالى:

- ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾ [الإسراء: 104]

فهل سكن من نجا مع موسى الأرض كلها أم أرض مصر؟

رابعاً، قال تعالى:

- ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١﴾ [القصص: 81]

- ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: 40]

فهل خسفت الأرض كلها بقارون وبداره أم هل هي فقط تلك الأرض التي كان يقطنها وهي جزء من أرض مصر؟ ولنتدبر النص القرآني التالي الذي يتحدث عن قصة موسى مع فرعون كما وردت في سورة طه:

- ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ [طه: 42-57]

وها هي القصة تتكرر في سورة الدخان:

- ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ [الدخان: 22-30]

إنّ المتدبر للسياقات القرآنية يدرك أنّ الحديث بأكمله عن قصة بني إسرائيل، وأن الخطاب الرباني جاء ليبين أن بني إسرائيل قد ورثوا الأرض التي خسرها فرعون (كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ)، وأن تلك الأرض لم تبكِ على بني إسرائيل عندما خسروها، ولا أخال أنّ المقصود هنا غير الأرض التي خسروها.

إن من الملفت للانتباه هنا هو التطابق القرآني في قصة بني إسرائيل عند الحديث عن الأرض وقصة آدم وزوجه على الأرض، ولنحدد السياقات القرآنية التي تظهر ذلك التطابق، ففي الخطاب السابق الموجه إلى بني إسرائيل جاء الخطاب على النحو التالي:

- ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: 53-55]

أما في الخطاب الذي وُجّه لآدم ومن هبط معه فجاء على النحو التالي:

- ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: 24-25]

نستنتج أنّ الخطاب عن الأرض جاء في القران الكريم على صيغ أربع:

الخطاب عن الأرض كلها ككتلة واحدة، وتكون مفردة الأرض غير مسبوقة بحرف جر، قال تعالى:

- ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: 33]

الخطاب عن الأرض كلها، وتكون مفردة الأرض مسبوقة بحرف جر:

- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ [آل عمران: 109]
- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: 7]

الخطاب عن جزء من الأرض، وتكون مفردة الأرض مسبوقة بحرف جر

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: 97]

الخطاب عن جزء من الأرض، وتكون مفردة الأرض غير مسبوقة بحرف جر، قال تعالى:

- ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: 104]

والملفت للانتباه أنّ الخطاب عن الأرض إذا جاء في القرآن بالصيغة الرابعة (مفردة الأرض غير مسبوقة بحرف جر لتدل على جزء من الأرض) كان الحديث دائماً عن بني إسرائيل وبالتحديد عن قصة موسى مع فرعون، أي أرض مصر التاريخية (أي المنطقة المجاورة لضفتي البحر)، وقد حددها سبحانه وتعالى في قوله:

- ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: 137]

وهنا يتحدث النص القرآني عن ميراث الأرض، وتتأكد فكرة ميراث الأرض في قوله تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: 105]

تلك هي – في ظننا- الأرض التي يتحدث عنها النص القرآني إذا كان المقصود جزءا من الأرض وليس الأرض بأكملها، وسؤالنا هو: هل يرث الأرض (كل الأرض) عباد الله الصالحون؟ فلو كان الأمر على هذه الشاكلة لما كان لغير عباد الله الصالحين موطئ قدم على الأرض، ولكن الأرض التي تتحدث عنها الآية الكريمة هي جزء من الأرض، ونحن نزعم الظن أنها هي تلك التي تحدث عنها النص القرآني في خطاب المستضعفين في الأرض من قوم موسى.

ولتأكيد فكرة أن مفردة الأرض قد تعني جزءاً من الأرض وليس الأرض كلها نورد الدليل الدامغ من كتاب الله، قال تعالى:

- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: 67]

ونحن نتساءل عن سبب ورود كلمة جميعاً في هذا السياق، أي لم قال الله تعالى: وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ أليست الأرض حينئذ بقبضة الله؟ إن ذلك يعد من الإطناب غير الضروري إن كانت الأرض كتلة واحدة في قبضة الرحمن، إننا نظن أن الأمر ربما لا يكون على الشاكلة التي فهمها أسيادنا العلماء ونخروها في عقول العامة دون دليل أكثر مما ألفوا عليه آباءهم.

رأينا: نحن نظن أن ورود كلمة جميعاً في قوله تعالى (وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ) ربما لتدل على أنّ الأرض هي مقسمة إلى أجزاء، ولكن كل تلك الأجزاء من الأرض ستكون في يد الرحمن. إن مراد القول أن كل قطعة (كتلة) من الأرض هي أرض، فأرض مدين هي أرض، وأرض قوم صالح هي أرض، وأرض قوم نوح هي أرض، وقارة آسيا هي أرض وقارة أفريقيا هي أرض والمحيط المتجمد الجنوبي هو أرض، وتكون يوم القيامة جميعاً قبضة الرحمن لا ينفلت منها شيء.

في ضوء الآية الكريمة نفسها (وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ)، فإننا نثير تساؤلات للنقاش في مقالات قادمة، ما جمع مفردة الأرض؟ جواب: الأرض جميعاً. ما جمع مفردة سماء؟ جواب: السموات

فالله أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علما

التحذير من الاقتراب من الشجرة

لقد أخفق الفكر الإسلامي السائد (على ما نظن ونزعم) في شرح قصة التحريم الأولى، مدعيّاً أنّ قصة الأكل من الشجرة كانت اختباراً لآدم وزوجه في الجنة، ولمّا فشل آدم وزوجه في ذلك الاختبار أمره الله بالهبوط إلى الأرض، ونحن نظن أنّ ذلك غير صحيح للأسباب التالية:

أولاً، إنّ الخلافة التي اختص الله بها آدم على الأرض كانت ستحصل سواءً أكل آدم وزوجه من الشجرة أو لم يأكلا، فالله سبحانه قضى بخلافة آدم الأرض حتى قبل أن يسكنه الجنة، وتسلسل الأحداث جلي جداً في سورة البقرة، قال تعالى:

(1) القرار الإلهي باستخلاف بشر من طين:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

(2) تعليم الله لآدم

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣﴾ [البقرة: 31-33]

(3)الأمر الإلهي بالسجود لآدم

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: 34]

(4)الأمر الإلهي لآدم وزوجه بالسكن في الجنة

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة: 35]

(5)وقوع آدم وزوجه في مكيدة الشيطان

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦﴾ [البقرة: 36]

(6)قبول توبة آدم

- ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ [البقرة: 37]

(7)الأمر الإلهي للجميع بالهبوط

- ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾ [البقرة: 38]

فهذه الآيات الكريمات تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنّ القرار الإلهي باستخلاف آدم في الأرض كان السبب وليس النتيجة للأكل من الشجرة، فالله سبحانه يخبر الملائكة بخلافة آدم حتى قبل تسويته، قال تعالى:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحجر: 28-31]
- ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ [ص: 71-74]

ثانياً، عندما حذّر الله سبحانه بنفسه آدم وزوجه من الأكل (أو حتى الاقتراب) من الشجرة علّل هذا التحذير بالقول " فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ "، قال تعالى:

- ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]

ونحن نظن أنّ الظلم في سياقه القرآني يعني ارتكاب السوء بعد حصول العلم فيه (وسنتعرض بالتفصيل لهذا المبحث عند الحديث عن تحريم الأطعمة)، فآدم عَلِمَ من الله سبحانه أنّ الأكل من الشجرة أمر خاطئ فتحصل له العلم بذلك، ولكنّه نزل عند رغبة الشيطان فأكل من الشجرة، وعندما عاد وزوجه إلى ربهما أقرا بالظلم الذي ارتكباه:

- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف: 23]

المهم في الموضوع أنّ الله بيّن لآدم وزوجه عاقبة الأكل من الشجرة فكانت على نحو فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ، وليس فتكونا من الخارجين أو فتكونا من الهابطين ونحوهما. فالأكل من الشجرة لم يكن عاقبته الهبوط أو الخروج من جنة الفردوس (كما يعتقد الكثيرون).

ثالثاً، علّل الشيطان لآدم الأكل من الشجرة بالحجة التالية:

- ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]
- ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠﴾ [طه: 120]

فتقبل آدم تلك الحجة، وأكل من الشجرة: فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ... فَأَكَلَا مِنۡهَا...

رابعاً، عندما أكل آدم وزوجه من الشجرة حصل لهما مكروه:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]
- ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

وكان ذلك هو مقصد الشيطان من الوسوسة: حتى يتحصل لهما ذاك المكروه:

- فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا

وليس ما تلفّظ به صراحة لآدم وزوجه:

- ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

(سنتناول هذه القضية بشيء من التفصيل لاحقاً)

يتضح إذاً من قصة التحريم الأولى أنّ التحذير لم يكن بداعي الاختبار ولكن لما يترتب عليه من مكروه، فالله سبحانه حذّر آدم وزوجه من الأكل من تلك الشجرة حتى لا يتحصل لهما ذلك المكروه، وهذا لا شك هو أساس التحريم في المأكولات.

خامساً، لقد علم الشيطان أنّ الأكل من الشجرة سيترتب عليه حصول المكروه، وكان ذلك المكروه هو أنْ تبدى لهما ما وري عنهما من سوآتهما:

- ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

فـ اللام في قوله " لِيُبۡدِيَ " هي لام (الهدف) وليس لام التعليل (فهي تدل على ما يخفي الشيطان في نفسه عندما وسوس لآدم وزوجه)، فالشيطان كان يبطن ذلك الهدف المعلوم بالضرورة لديه، ولكنّه علّل الأمر لآدم وزوجه على غير تلك الشاكلة، فدلهما بغرور " أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ " و " هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ " وأصر على ذلك عندما:

- ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾ [الأعراف: 21]

سادساً، أكل آدم (وزوجه) غير ناسياً الأمر الإلهي له بالحذر من الاقتراب من الشجرة، وذلك لأنّ الشيطان عندما كان يحاول إيقاع آدم في المعصية ذكره بنفسه بذلك الأمر:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 20]

فالإنسان حتى اللحظة لا يقع في معصية إلاّ ويتذكر أمر ربه قبل الوقوع فيها، فتنازعه نفسه، ويحدث ذلك الصراع الداخلي، وفي هذه الحالة يكون الإنسان من الظالمين إن تابع هوى نفسه ووقع في المعصية، أما إذا عمل شخص عملاً ما وأخطأ فيه ولم تنازعه نفسه قبل الوقوع في الخطأ فلا يكون من الظالمين، وما يهمنا هنا هو موضوع الشجرة التي أكل منها آدم وزوجه.

⇐ ما هي الشجرة التي حذر الله آدم وزوجه من الاقتراب منها؟
⇐ فلا بد من التعريج على سؤال رئيسي في قصة التحريم الأولى وهو :
⇐ ما هي تلك الشجرة التي حذر الله آدم وزوجه من الاقتراب منها؟
⇐ ولماذا حذر الله آدم وزوجه من الاقتراب منها؟
⇐ ولماذا كانت الشجرة أصلاً موجودة في جنة آدم؟
⇐ فهل لو كانت الشجرة غير موجودة كان آدم وزوجه سيقعان فريسة لمكيدة الشيطان؟

لقد بينّا سابقاً أن الله سبحانه حذّر آدم وزوجه من الاقتراب من الشجرة (ليس اختباراً لهما وإنما) لما سيترتب على ذلك من المكروه الذي سيحصل لهما إن هما أكلا منها، قال تعالى:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢﴾ [الأعراف: 22]

ولكن، لماذا كانت الشجرة موجودة في الجنّة أصلاً؟ إنّ محاولة حل هذا السؤال يتطلب- في رأينا- إثارة سؤال آخر وهو: كيف علم الشيطان بخبر الشجرة؟ وكيف علم أنّ الأكل من الشجرة ستكون عاقبته على نحو ما كان؟

إننا ندعي -كما ذكرنا في أكثر من مكان في مقالاتنا السابقة- أنّ هذا دليل كبير على أنّ الجنّة التي كان يسكنها آدم وزوجه لم تكن جنّة الخلد إطلاقاً، وأن تلك الجنّة كانت مأهولة بجنس آخر من خلق الله وهم الجن بدليل تواجد الشيطان مع آدم وزوجه ليوسوس لهما، وبدليل أن الله عندما أمر الجميع بالهبوط قال لهم:

- ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣﴾ [طه: 123]

فمفردة " جَمِيعَۢاۖ " تدل على أنّ المأمور بالهبوط ليس آدم وزوجه بل جنس البشر ممثلين بآدم وحواء وكذلك الجن ممثلين بالشيطان الذي وسوس لآدم وزوجه، وكذلك بدليل العداوة في قوله تعالى " بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ "، فليس هناك عداوة بين آدم وزوجه، بل العداوة مستحكمة بين الجن (الشياطين منهم) والإنس.

فالشجرة إذاً كانت موجودة في الجنة قبل آدم وزوجه، ولهذا يعلم قاطنو المكان (الجن على وجه التحديد) ذلك التحذير الرباني من الاقتراب منها، فالله - لا شك – حذّر ساكني الجنة من الاقتراب منها قبل أن يحذر آدم وزوجه، ولهذا تحصّل للشيطان العلم بخبر الشجرة حتى قبل سكن آدم الجنة، فاستخدمها كمكيدة لوقوع آدم في المعصية.

وقد يرد البعض بالتساؤل التالي : لماذا حرّم الله تلك الشجرة على الجن من سكان الجنة؟ فنرد بالقبول لربما لنفس السبب الذي حرم الله من أجله بعض الأطعمة على بني إسرائيل مثلاً:

- ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ۝١٦٠﴾ [النساء: 160]

وهذا مثبت بدليل وجود من يعمل المكائد (الذي وسوس لآدم لمخالفة الأمر الرباني) في نفس المكان الذي كان آدم وزوجه متواجدين فيه. فسكان المكان (وأقصد الجن على وجه الخصوص) كان منهم المؤمن ومنهم الكافر. نخلص إلى القول أن الجنّ كانوا يسكنون تلك الجنة قبل آدم ولكن بعضهم ظلموا أنفسهم، فحرّم الله عليهم بعض تلك الأطعمة (تلك الشجرة)، ويبقى التساؤل الأكبر: ما هي تلك الشجرة؟ ولماذا هي بالذات؟ وما هي ماهية تلك الشجرة؟

إن هذا السؤال غاية في الخطورة (في نظرنا)، لأننا سنقفز إلى نتيجة قد لا تحمد عقباها لنا على وجه التحديد، فنقول بعد التوكل على الله أننا نفهم أنّ تلك الشجرة هي ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝١٩ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ۝٢٠﴾ [المؤمنون: 18-20]

نعم، إننا نظن أن الشجرة التي حذر الله آدم من الاقتراب منها هي تلك الشجرة التي تخرج من طور سيناء، وهنا سيسبقنا القارئ بالآلاف من الأسئلة التي تثار في ذهنه، فجل ما نحتاجه هو إعطائنا فسحة من الوقت لتبرير هذا الإدّعاء.

أولاً، نطلب من القارئ الكريم أن يربط ما تنبت به هذه الشجرة (بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ) بما حصل لآدم وزوجه عندما ذاقا الشجرة ﴿... بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا ...﴾ [الأعراف: 22]، إنّ ابسط ما تعنيه هذه العبارة أن سوءة آدم وزوجه لم تكن بادية لهما إلا لحظة الأكل من الشجرة، فنسأل كيف إذاً بدت لهما سوءاتهما؟ لقد ذكرنا في مقالة سابقة لنا (علم اللغة) أن السوءة تعني الجسد بأكمله بدليل قصة ابني آدم في قوله تعالى:

- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31]

ولا أخال أنّ الأخ كان يحاول تغطية عورة أخيه فقط (كما روج معظم الفكر الإسلامي السابق لمعنى السوءة)، ولا أخال أن الله بعث الغراب الذي كان يبحث في الأرض ليريه كيف يواري عورة أخيه كما ظن الكثيرون وادعوا، بل (كما نظن) للتخلص من الجثة بأكملها بالدفن في باطن الأرض.

نعود إلى صلب الموضوع بالفهم أنّ سوءة أدم وزوجه (سَوۡءَٰتُهُمَا) قد بدت لهما لحظة الأكل من الشجرة، ونبادر القارئ الكريم بالسؤال التالي: لماذا بدت السوءة (الجسد بأكمله) عندما أكلا من الشجرة؟ وكيف كانت إذاً أجسادهم قبل الأكل من الشجرة؟

لقد بينا في مقالة سابقة (علم اللغة) أنّ آدم وزوجه لم يكن لون بشرتهما (أي لون الجسد) باد لهما قبل الأكل من الشجرة وذلك لأنّ آدم وزوجه كانا قبل الأكل من الشجرة نورانيين بدليل أن الله الذي هو نور السموات والأرض:

- ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾ [النور: 35]

هو من نفخ بنفسه من روحه في آدم لحظة بعث الحياة فيه:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر: 28-29]

- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: 71-72]

نخلص إلى القول: لقد اكتسب آدم وزوجه ذلك النور من مصدر النور الحقيقي فكانت سوآتهما غير بادية لأنها نور خالص، وخسر آدم وزوجه تلك النورانية لحظة أن أكلا من الشجرة، فكيف حصل ذلك؟

إننّا نعتقد أن ذلك لا يتم إلا إن كانت تلك الشجرة التي أكل منها آدم وزوجه تنتج صبغاً يلوّن جلود الآكلين منها، وهنا تظهر في كتاب الله قصة شجرة طور سيناء التي لم تذكر في محض الحديث عن الأكل وإنما منفصلة في آية مستقلة تتحدث عن صبغ للآكلين، فتلك الشجرة التي تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين (تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ)، فمن أكل من تلك الشجرة سيصبغ جسده، ولا شك أنّ الجسد عندما يصبغ يتغير لونه، ولا شك كذلك أنّ اللون هو أساس الرؤيا، وبكلمات بسيطة لقد اكتسب آدم النور من مصدر النور الحقيقي فكانت سوآتهما غير بادية لأنها نور خالص، وخسر آدم وزوجه تلك النورانية لحظة أن أكلا من الشجرة لان فيها صبغا لمن يأكل منها، وعندها تلونت جلودهما وأصبحا قادرين على رؤية أجسادهما فكان لزاما تغطية تلك الأجساد:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: 22]
- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: 121]

ثانياً، للنظر إلى السياق الأوسع الذي وردت فيه قصة شجرة طور سيناء:

- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: 18-20]

ألا ترى - عزيزي القارئ- أن تلك الشجرة تنبت في الجنات التي أنشأها لنا ربنا على الأرض (وليس في السموات)؟ ثم لندقق النظر في النص أكثر: ألا ترى أنّ في تلك الجنات نخيل وعنب وفواكه كثيرة نأكل منها؟ ولكننا لا نأكل من الشجرة التي تخرج من طور سيناء، فلقد جاء الحديث عن تلك الشجرة في الآية (20) منفصلة عن الآية التي سبقتها والتي تتحدث عن الثمار التي خصصت للأكل في تلك الجنات، أي لقد جاءت بعد الانتهاء من تلك الأطعمة التي أنشأها لنا ربنا في تلك الجنات، ثم لندقق النظر في الخطاب الإلهي لنسأل: لمن الخطاب موجهاً؟

ولاحظ كذلك –عزيزي القارئ- صيغ الفعل الماضي (وَأَنزَلْنَا ، فَأَسْكَنَّهُ ، فَأَنشَأْنَا) . فلو ظن البعض أن الخطاب موجه للبشرية بأكملها لبرز التساؤل الكبير : وما دخل شجرة طور سيناء بمن يسكن القارة الأوروبية أو الاسترالية أو الأمريكيتين، الخ؟

نعم، تلك هي – في ظننا- جنات آدم وزوجه، فلقد كان فيها نخيل وأعناب وفواكه كثيرة ليأكلوا منها، وفي الوقت ذاته كان فيها تلك الشجرة التي تخرج من طور سيناء والتي تنبت بالدهن وصبغ للآكلين، وعندما أكل منها آدم وزوجه صبغت جلودهم فتلونت، وبكلمات علمية لقد اكتسب آدم وزوجه من تلك الشجرة جينات اللون فتلونت جلودهم وتلونت جلود ذريتهم من بعدهم، فولدوا الأبيض والأصفر والأشقر والأسمر والأسود، بسبب صبغ تلك الشجرة التي حذرهم الله منها.

ثالثاً، لعلنا بحاجة أن نجلب انتباه القارئ إلى فكرة –في ظننا- وجدناها في كتاب الله فيها من الغرابة والطرافة ما يستدعي التوقف عندها، تتلخص تلك الفكرة بأن القرآن الكريم يسرد موقفين اثنين فقط تمت فيهما المخاطبة الإلهية المباشرة لخلقه، وهما خطاب الله مع آدم لحظة أن اسكنه الجنة وحذره من الاقتراب من الشجرة:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: 19]

وثانيهما، مخاطبة الله سبحانه نبيه موسى عليه السلام:

- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: 29-30]

دقق النظر - عزيزي القارئ- بمفردات هذه الآيات الكريمات لتجد أن هناك الطور، وهناك حادثة المناداة، وهناك الشجرة. فهل ذلك كله من قبيل المصادفة؟ لقد نادى الله موسى من جانب الطور في البقعة المباركة من الشجرة، وقد نادى الله آدم وزوجه وهما في مكان مبارك وكانا عند الشجرة.

إننا نعتقد جازمين أنّ الحدثين متصلين لأنهما تمّا في نفس المكان، فمخاطبة الله لآدم ومخاطبة الله لموسى (الاتصال المباشر من البشر مع الله) تمت في نفس المكان، فالله سبحانه لم يخاطب بشراً قط غير آدم وموسى، وتلك المخاطبة تمت في نفس المكان بدليل توافر نفس عوامل الجغرافيا في الحالتين.

ولنعقد مقارنة بين الحالتين كما ترد في السياقات القرآنية:

أ. لندقق النظر بما حصل لآدم وحواء في الجنة ثم لنربط ذلك مع ما حصل لقوم موسى في ذلك المكان:

جاء في سورة البقرة:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٨﴾ [البقرة: 58]

وجاءت نفس المقارنة في سورة الأعراف:

- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: 19]
- ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٦١﴾ [الأعراف: 161]

ب. ثم انظر كيف كان موسى لحظة الخطاب:

- ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ [الشعراء: 10]
- ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ٥٢﴾ [مريم: 52]
- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾ [القصص: 46]

لاحظ –عزيزي القارئ- كيف تتكرر فكرة المناداة (مناداة رب العالمين لنبيه موسى)، والمهم في الموضوع أنّ تلك المناداة الربانية لم تتحصل إلا لآدم من قبل:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]

وقد يرد البعض بالقول ولكن تلك المناداة لآدم حصلت فقط بعد المعصية، وجاء الخطاب قبل المعصية على النحو التالي:

- ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]

فنقول نعم، إنّ فكرة القرب والبعد المكاني للذات الإلهية واضحة في قصة آدم، فقبل المعصية جاء الخطاب من الله لآدم وزوجه على صيغة القرب المتمثلة في قوله تعالى:

- ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]

وتحول الخطاب بعد المعصية على النحو التالي:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]

فقبل المعصية نجد القرب الإلهي في كلمة "هذه الشجرة"، ولا شك أن القريب مكانياً لا يحتاج إلى المناداة (فترد الصيغة على نحو: قال ويقول ونحوهما) ولكن المناداة تتحصل لمن كان بعيداً عن الآخر في المكان (فترد الصيغة على نحو نادى وينادي ونحوهما)، فحصلت بذلك مناداة رب العالمين لآدم لحظة البعد المكاني، وكذلك حصلت المناداة الإلهية لموسى في نفس المكان للبعد المكاني بين موسى وربه، وقد يبادرنا البعض بالقول : كيف ذلك ورب العالمين موجود في كل مكان ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وهو أقرب إلينا من حبل الوريد؟

فنرد على ذلك بالقول بأننا نتحدث عن المكان الجغرافي (وليس عن علم الله)، فجغرافياً (مكانياً) لا شك أن هناك مسافة بين الإله والبشر، لذا فالمخاطبة تحصلت بالمناداة، فانظر كيف ترد فكرة المناداة في كتاب الله:

- ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨﴾ [المائدة: 58]

- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [الأعراف: 44]
- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨﴾ [الأعراف: 48]

وهذا بالفعل ما يحدث حتى عندما يكون الخطاب من البشر إلى ربهم: فها هو نوح ينادي ربه:

- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾ [هود: 45]
- ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾ [الأنبياء: 76]

وها هو أيوب ينادي:

- ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء: 83]

وذا النون ينادي:

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: 87]

وزكريا:

- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء: 89]

ولكن الله نفسه هو من نادى موسى:

- ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ [الشعراء: 10]

ونخلص إلى القول أنه بسبب البعد المكاني بين الإله وموسى، حصل الخطاب على نحو " نَادَىٰ "، وحتى يتيقن القارئ من وجود البعد المكاني بين الإله ونبيه موسى ندعوه ليدقق النظر بمفردات الآية نفسها:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم: 51-52]

وسؤالنا هنا يتمحور حول ورود عبارة " وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا "، فما معنى ذلك؟ أي كيف حصل القرب لموسى؟ فإذا كان الله موجوداً فيزيائياً في كل مكان فما داعي ورود عبارة " وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا "؟ وما هو أصلاً القرب الذي حصل لموسى؟ إننا نظن أن ذلك لا يعني أكثر من القرب المكاني لموسى من ربه؟ وبسبب ذلك القرب تجرأ موسى فطلب الرؤيا المباشرة للذات الإلهية:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: 143]

انظر سياقات (قرب) القرآنية للتأكد أن القرب يعني القرب المكاني.

ت. وللمزيد من المقارنة بين حالة آدم وقوم موسى عليهما السلام عندما خالفا الأمر الرباني بالسكن والأكل مما شاءوا، فإننا نثير التساؤل الغريب التالي:

ما الذي حصل بعد مخالفة ذلك الأمر الرباني؟ إنه الهبوط:

في حالة آدم:

- ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: 123]

في حالة قوم موسى:

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: 61]

لقد ظهرت فكرة الهبوط في الحالتين، ولا شك أن الهبوط في حالة قوم موسى هو تبديل المكان (من الأرض المقدسة إلى أرض مصر)، فما هو الهبوط في حالة آدم وزوجه؟ لقد بيّنا كذلك في مقالة سابقة لنا أن هبوط آدم كان انتقالا من مكان على الأرض إلى مكان آخر على الأرض.

سادساً:

- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠﴾ [طه: 80]

سابعاً:

- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾ [القصص: 46]
- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩﴾ [البقرة: 59]
- ﴿۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾ [البقرة: 60]

نستنتج أنه في كلا الحالتين حصلت الأمور التالية: الحياة الرغد، تبديل الكلام، حصول الظلم، حصول العقاب، طلب الطعام الذي هو أدنى، الأمر الإلهي لهم بالهبوط.

كتاب النظرية العالمية الإسلامية لفهم أسرار الكون

د. رشيد الجراح

ISBN-13: 9798230011637

الدراسات القرآنية

